

## عبد الناصر والسادات :

أوردنا فيما سبق ما هو منسوب لنجيب محفوظ وأليس منصور بشأن هذين الحاكمين، كلنا المقولتين لها قيمتها، وإن تكن غير مكتملة المنطق والمضمون .

لكي نتحدث عن النصر والهزيمة ويكون لكلامنا قيمة ومغزى ، لابد لنا أن نحدد على من كان الانتصار وأمام من كانت الهزيمة ، وأن تكون رؤيتنا واضحة ، فلا نقول مثلاً أننا خرجنا سنة ١٩٦٧ منتصرين لأن هدف إسرائيل — وهو إسقاط الثورة — لم يتحقق ! مع أن كلاً منا يعرف في قرارة نفسه أن الإسرائيليين لم يستفيدوا من شيء بقدر ما انتفعوا بما نسميه نحن الثورة ، ولو أنهم أرادوا إسقاط عبد الناصر لفعّلوا بسهولة في تلك الأيام ، ولأقاموا له تمثالاً قسى نل أبيب كما يقول الأستاذ الحكيم . المصريون الذين أحسوا بالانتصار في تلك المناسبة هم الذين رقصوا عندما تأكدوا أن مرتباتهم مستمرة .

ويلحق بذلك أيضاً نصر ١٩٥٦ الذي تحقق عندما أعلنت القوات العظميان في ذلك الوقت أنه "لا ثالث لهما"، وسقط أنتوني إيدن لا لأنه "خرع" بل لأنه — هو أيضاً — لم يدرك أحوال العالم جيداً ، وبالتأكيد فإن إيدن لم يكن — بحكم ماضيه — اختياراً موقفاً لزعامة حزب المحافظين — ومن ناحية كسب عبد الناصر للصراع فتحن طبعاً نعرف ماذا كان مصير القناة وماذا كان يكون لو لم "يرحل عن دنيانا". حياة عبد الناصر كانت كلها فشلاً في فشل، سوريا، اليمن، العرب، حيثما ذهب لم يحقق شيئاً، والأسهل أن نعد انتصاراته، هناك معركة عسكرية واحدة انتصر فيها وهي معركة كمشيش . فينا نقص فطبع عندما نفكر في هذه الأمور، مضمونه أننا لا نحاول أبداً أن نتصور رؤية العالم لنا ونحن ننقض بالدبابات على أسرة من الفلاحين بنسائها وأطفالها، وكما نشرت

الصحف، ومنها الأخبار، بعد "الرحيل" طبعاً، الكثيرون رأوا فيها ما لا تقارن به دنشواى التى فضحنا بها الإنجليز . لا أحد يعرف حقيقة الموضوع حتى الآن ، قال أيه عضو فى الاتحاد الاشتراكي قتلوه . نأتى بالكلاب تهاجم الرجال والنساء، وتلبس الرجال ملابس النساء ولجسم الخيل .. ما الذى يدل عليه هذا سوى البهيمية والخبية؟ ثم .. لجنة تصفية الإقطاع ، فرقة من الحشاشين والقتلة وخبراء التعذيب واللصوص .. نعم، عبد الناصر مات منتصراً فى التليفزيون فقط، والآن إلى السادات.

كما نعرف كانت سياسة مصر - واقتصادها وصناعاتها - تقوم على الشعارات بصفة أساسية، وفى عيد العمال سنة ١٩٧١ وقف السادات يحذر "اللى بيخدعوا الشعب بالشعارات"، وما لبث أن بطش بهم بشكل يدل على مدى خيبة هؤلاء الذين كان الشعب - وما زال للآن - يرتعش منهم خوفاً ! إذا أردت مقارنة بين هذين، خذ هذه : "دولة تصون ولا تهدد، تحمى ولا تبدد، نصادق من يصادقنا، نعادى من يعاديننا"، الركاكة وحدها تكفى، هذا السجع الردئ والمضمون السفيه ، فقط تأمل هذا المبدأ الذى يصلح تعبيراً عن السلبية : نصادق من يصادقنا، نعادى من يعاديننا؟! معنى هذا أننا لا إرادة لنا فى الأمر، نحن نجلس هكذا كالبهائم، إذا غازلونا استجبنا لهم، وإذا هجرونا بادلناهم الشعور ! طبعاً، فنحن لا نعرف شيئاً عن العالم، سواء الأصدقاء أو الأعداء، ألا يذكرك هذا بـ "إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلاً وسهلاً"؟ أنا أقعد كالتيتل وهم الذين يقررون ما يريدونه وما نفعله نحن نتيجة لذلك . قارن هذا بقرار السادات أن يبدأ بالهجوم الجوى على قوات تملك ثالث أقوى سلاح طيران فى العالم ، قارن هذا بقرار الاقتحام الذى أعطى إسرائيل علقسة لم يسبق لها مثيل ..، ونحن نحارب بأسلحة عتيقة رديئة، قارن هذا بقرار إخراج السوفيت من مصر قبل ذلك بسنة واحدة، وللذين يهرفون بأن عبد الناصر كان ينوى الحرب، والروس

موجودون يا ترى؟ هم أيضاً لا يحاربون إلا في لتوانيا وأنربيجان، هم أيضاً قعدوا كالبلهاء إلى أن محققهم النازيون، وكان طردهم أساسياً لثمن الحرب ضد إسرائيل، وقبلها بسنة واحدة، حدثت المواجهة مع العصابة التي أسموها "مراكز القوى" - إذا أردت أن تتأكد أن المصريين يفهمون جيداً، خذ هذه النكت التي كانوا يحكونها: "أنا حامشى على خط عبد الناصر..بالأستيكة!" - سائق السادات يقول له : الرئيس عبد الناصر كنا لما نجى هنا يقول لف شمال، "طيب، سوق يا ابني، إدى إشارة شمال، ولف يمين" .

لماذا؟ لماذا ألبس السادات نفسه عباءة عبد الناصر وحمل نفسه مسؤوليتها مع أنه لم يكن يشارك في السلطة بشكل يجعله مسؤولاً عما وقع؟ بل إنه بمجرد أن تولى السلطة، قال بوضوح "أنا مش حاكون ماركسى" - هكذا بوضوح؟ لماذا لم يقف كما وقف خروشوف ويفضح تلك "الحقبة السوداء في تاريخ مصر" كما ورد في حبيثيات إحدى قضايا التعذيب؟ بل إن الأمر وصل بنا إلى أن عدداً من كتابنا ومفكرينا تقدموا إليه قبل حرب أكتوبر ببضعة شهور بالعريضة المشهورة، والتي يشكون فيها من ضياع البلد وحالة أجيال الشباب من حيث الإحتلال.. الخ؟ السؤال الذى هو أكثر جدارة هو: ما الذى كان يحدث لو أن هذه العريضة قدمت إلى الحاكم الذى وقع كل هذا فى عصره، يا ترى؟ مذبحة الكتاب والصحفيين؟ الواقع أن الوليمة عندما انتهت، كان دور السادات هو أن يدفع الفاتورة! مع أنه الوحيد الذى لم يحضر المأدبة أو على الأقل لا ذنب له فى ذبح الجاموسة .

بل إنه ذاق الأمرين من جميع الفئات والطوائف . كل الطوائف كانت مهضومة الحقوق منعدمة القدرة مكتومة الأنفاس، الأقباط مثلاً، لم تكن تحس بوجودهم أيام عبد الناصر، لا فى الجيش ولا فى الحكومة، العسكريون منهم لا يصلون إلى الرتب الكبيرة وحتى من يتعاطون الحشيش (إن وجدوا، كانوا قليلين) لم يكن

منهم أحد في شلة النائب الأول ، السادات ، ولأول مرة ، عين واحداً منهم قائداً للجيش الثاني . وكانت قد سرت إشاعة قدرة منحة تزعم أنهم تعاونوا مع الإسرائيليين في عملية الثغرة ، إلا أن هذا لم يشفع له ، فقد جاء بعد عصر العبودية ليبيشر بالحرية والانفتاح والديموقراطية . ألسن تقول الحرية ؟! حسناً ، أنا أيضاً أريد الحرية ! الحرية يعنى للجميع ! وهكذا قامت قيامة الجميع من ماركسيين وإسلاميين ، ولو كان في البلد دروز لقامت قيامتهم هم أيضاً . وقد أدى هذا إلى شعور إخواننا الأقباط بأن لديهم شكوى أيضاً . وطبعاً ، من العبث أن نشكو من رحلوا، ولعل من أسوأ ما رأيناه في عصر السادات تلك الأزمة التي حدثت مع البابا شنودة ، صحيح أن السادات حاول كثيراً إصلاح الموقف، أنا أعترف له بذلك، إلا أنه كان يجب أن يتحاشى الإساءة إلى رجل في هذا الموقع، مهما كان الذى سيتحمله نظير ذلك . وبالتأكيد، لم يكن ما فعله معه ضرورياً على وجه الإطلاق .

إلا أن هذا كله هو ما يأتى - فى رأى المتواضع - تحت عنوان التحول من الشمولية إلى الوضع الطبيعى لحياة البشر، وهو ما أحسب أن أسميه "أن تلزم السلطة حدودها" - وأن تعرف الحكومة أن عملها هو إقرار النظام العام وليس أن يمسك البيروقراطيون بالرغيف ويوزعون اللقمة على الذين دفعوا هم ثمن هذا الرغيف .. "سيندروم الخصخصة" هذا، وهو محتوم أن يحدث .

### "كنا عبيد وبقينا أحرار" :

هكذا تقول الأغنية الشهيرة "ع الدوار" . إنصافاً للحقيقة فإن هذه الأغنية ظهرت فى أعقاب الحركة المباركة مباشرة، وإن كنا ما نزال نرتكب جريمة إذاعتها فى أعياد الثورة المجيدة . والجريمة هنا لا تتمثل فى مجرد خديعة الأجيال بهذا الكلام السفیه، بل فى

الإسفاف فى النغم والركاكة فى اللفظ، إفساد أذواق الناس بالهبوط، وتعويدهم على الطبل والزمر بالسماجة التى ألفتها، وغرس فكرة أنه لا حياة لشعب بدون فلان الفلانى، هو فرض أسوأ نوع من العبودية عليهم . قد يكون فى التاريخ حكام "عظماء" ، إلا أن هذا فى رأى المتواضع أمر نادر الحدوث ، وأنا فى الحقيقة لست أرى فى أمثال هامورابى و بختنصر وتحتمس الثالث ويوليوس قيصر و نابليون ، لست أرى فيهم سوى قتلة متوحشين ، وأظن أن القارئ سيوافقنى لو أنه تخيل نفسه مكان رب أسرة فى المناطق التى اجتاحتها جيوش هؤلاء ، لو أنه تصورهم وهم يقطعون رقبتة ويغتصبون امرأته وبناته ويبيعون أبناءه فى أسواق العبيد ، كان هذا يحدث، بل ومضى يحدث لغاية الحرب العالمية الثانية ، علي أيدى النازى وحلفائهم اليابانيين ، وكان يعتبر أمراً شرعياً تماماً وقانونياً تماماً . حتى نابليون الذى يريد أن يغزو العالم بدعوى نشر مبادئ الحرية والإخاء والمساواة أعدم آلافاً من الأسرى الأتراك ، ثم تركهم يمسون به ويحبسونه كالقار ، طب انتحزى هتلر أو .. "عبد الحكيم" . كل هؤلاء يموتون ، ويبقى وجه ربك . كلهم ماتوا ، ماوتسى تونج كان أقرب شىء إلى الحاكم "الإله" — والعياذ بالله — فى العصر الحديث . مات ! وكذلك عبد الناصر ، وأنا أميل تماماً إلى تصديق نظرية أنه مات بنفس السم الذى قتل به كثيراً من أعدائه وأعدائه ، وهذا كان موضوع كتابات كثيرة . كان الغرض هو إزاحة هذا المتسلط الذى يظن أن الشيوعية هى أداة فى يده بينما أنبياؤها يرون العكس . وكان على صبرى — بتاع السجاجيد — هو الخليفة المنتظر ، فتأمل أى قدر من الأذى أزاحه السادات عنا . هو طبعاً لم ينفذنا ، لست أقول هذا إطلاقاً — فلا يقدر على إنقاذنا إلا سبحانه وتعالى، إذا شاء !

إن القول بأن شعباً لا حياة له إلا بقائد معين ، حتى ولو كان يستحق هذه التسمية — والحالة التى نحن بصدها ليست كذلك

إطلاقاً — هذا القول هو أفسى إهانة توجه لهذا الشعب . إذ إنه كيف تكون حياة الشعب — وهي تمتد آلاف السنين — رهينة بحياة بشر لا تمتد عادة إلى قرن واحد فقط ، وكما رأينا فإن زعيمنا البطل لم يستطع حتى أن يعيش إلا نصف قرن فقط ؟ ثم "رحل عن دنيانا"؟؟ ومازلنا على أى حال نعيش، وسوف نظل نعيش إذا تمكنا من إزالة آثار العدوان ، ليس عدوان إسرائيل، فهذا أزلناه، عدواننا على أنفسنا هو المطلوب إزالته.

تأليه الحكام كان دائماً طريقاً إلى عبودية البشر، بدأ هذا النوع من العبودية يتلاشى مع تقدم المعرفة وبداية عصور التنوير، وظهور الحاجة إلى إشراك الشعوب فى إدارة شؤونها.

ما هى العبودية ؟ أو بلاش "هى" عشان ما يزعلوش منا بتوع النحو، ما العبودية ؟

العبودية هى إمتلاك فرد — أو أسرة — لفرد آخر، وبالتالي لأسرته . وكما هو معروف ، فإن المهاجرين إلى الدنيا الجديدة، كانوا يمتلكون العبيد المستوردين من إفريقيا ، فى واحدة من أحداث التاريخ البشرى التى تشكل وصمة قبيحة على وجه إنسان هذا الكوكب ، ويتمثل امتلاك الأسرة لأسرة أخرى ، فى أنهم يرثون العبيد كما يرثون الأرض ، وعندما تلد امرأة سوداء، فإن وليدها يصبح أيضاً عبداً مملوكاً لمن يملكها هى ، سواء أنجبته من زوج أسود مملوك ، أو من السيد الأبيض الذى يملكها . ومعروف أن هؤلاء "السادة" كانوا يمارسون الإنجاب من هؤلاء النسوة ، لكى .. يبيعوا هذا الإنتاج الزراعى كما يبيعون الإنتاج من الماشية ، بشكل يذكرنا بقصة يوسف الشارونى "الرجل والمزرعة" ، حقاً ، لماذا لا تعامل المرأة معاملة المزرعة ، تغرس فيها البذور ويلى ذلك تسويق الإنتاج ؟ نحن نعرف أنه بعد إلغاء الرق ، مازال هذا يحدث طواعية ، بسبب الفقر .

إلا أنه علينا أن نذكر أن المهاجرين الأوربيين إلى أمريكا ليسوا

هم الذين اخترعوا الرق ، كان موجوداً قبلهم بآلاف السنين، وإن كان لا بأس طبعاً بأن نقول أن الأمريكيان هم الذين ابتلوا به البشرية إن كان يلذ لنا ذلك . الواقع أنهم خاضوا حرباً أهلية أغلبنا لا يعرف عنها إلا أن حب سكارليت أوهارا لأتلى "ذهب مع الريح" ، هذه الحرب المأسوية الفظيعة استمرت خمس سنوات وراح ضحيتها مئات الألوف من الأمريكيين، كان سببها أن الولايات الشمالية رأت تحريم الرق، أسوة ببقية أنحاء العالم ومنها كندا إلى شمالها والمكسيك إلى جنوبها، ولكن الولايات الجنوبية التي كانت تعيش على زراعة القطن في زمن لم تكن تشيع فيه الطاقة الآلية، رفضت ذلك وأعلنت الانفصال عن الاتحاد مما كان مخالفاً لميثاقه ، فقامت الحرب ، ولكن العبودية ترجع إلى مجئ الزراعة بعد عصور التجوال وممارسة الصيد وجنى الثمار .

نذكر هذا كله لا لعلاقته المباشرة بما نحن فيه ، وإنما لندلل على العلاقة الوثيقة بين النشاط الاقتصادي من جهة ، والقيم الإنسانية من جهة أخرى .

كان الناس يفرضون العبودية على المستضعفين من البشر لدوافع اقتصادية في المقام الأول ، وإن تكن لهم في ذلك مآرب أخرى كحريم السلطان وغير ذلك .

كان مجئ الطاقة الآلية سبيلاً إلى نيل هذا كله ، وبرغم ثورة العبيد بقيادة الزعيم سبارتاكوس ، والتي جاءت قبل ميلاد المسيح بسبعين سنة ، فإن التحريم الكامل للرق جاء في أواخر القرن التاسع عشر ، سبقت ذلك خطوات وتطورات كثيرة طبعاً. ولكنه استمر بأشكال متعددة ، مازالت تتمثل حتى يومنا هذا .

الديموقراطية هي أيضاً فكرة قديمة ولكنها تبلورت أيضاً في ذلك الوقت ، ومن مفارقات القدر أن يكون ظهور كتاب كارل ماركس "رأس المال" مصاحباً لتعميم حقوق الانتخاب في بلاد مثل إنجلترا وألمانيا (على يدى بسمارك) - كلاهما كان يعد سبيلاً إلى

الحرية ، ماركس — بنظرة اقتصادية بحثه ، تكاد تتجاهل كل شيء آخر— يرى الشر كله في الرأسمالية ولا يرى سبيلاً إلى تهذيبها ، وعلى الجانب الآخر نرى بين الرأسماليين — ومن هؤلاء مثلاً هنرى فورد الذى أنشأ صناعة الإنتاج الكثيف وأعلن أنه سيجعل من عمال مصانعه ملاكاً للسيارات ، ونجح — نرى من بينهم من يؤمن بأن الحرية تتمثل فى رغد الحياة ، وبأن الحرية سياسية بقدر ما هى اقتصادية ، وأنه يمكن بكل تأكيد إصلاح قوانين العمل بما يمكن من الحد من شرور الرأسمالية مع الاستفادة بثمارها التى تأتى من إطلاق طاقات الإبداع الخلاق ، وكما نرى فى عصرنا هذا فإن علوم الإدارة قد تطورت إلى حد أن صنع القرار أصبح يأتى بالمشاركة الديمقراطية ، لا على مستوى الدولة فحسب ، بل فى المؤسسة الاقتصادية أيضاً ، وقد أصبحت الإدارة والقيادة كل منهما علماً له نظرياته وقواعده. أنا شخصياً وقد انتميت لصناعة الإدارة وتنمية المورد البشرى أربعين عاماً ، لست من هواة إخضاع سلوك البشر لقواعد العلم التجريبي ولكنى ما أزال أؤمن بأن الملاحظة واستنباط القواعد هى السبيل الوحيد إلى المعرفة ، والمعرفة هى السبيل الوحيد إلى القوة .

كان التطبيق الأول للنظرية الماركسية فى الاتحاد السوفيتى كما معروف. لست أرانى مضطراً لأن أكتب عن القذائع ، فالدنيا مليئة بمؤلفات ألكسندر سولزنتسين وأندريه ساخاروف وغيرهما من قائمة طويلة من الذين عاشوا تلك التجربة التى سأصفها بأنها غير آدمية ، وسأكتفى بأن أذكر أن لينين — الذى يشهد له فيلسوف مثل برتراند راسل بأنه لم يكن مجرد طامع فى السلطة بل زعيماً يؤمن فعلاً بما يدعو إليه ، والذى آمن به رسل نفسه فى شبابه ثم زار الاتحاد السوفيتى وقابل لينين وأصيب بخيبة أمل بقيت معه نصف قرن لغاية وفاته — لينين كان يوقع قوائم الإعدام على بياض ويعطيها لتروتسكى ليضع الأسماء ، وبعد موته ، لقي

تروتسكى نفس المصير على يدى ستالين الذى أرسل فرقاً تلاحق أولاده وتقتلهم ثم تقتله هو فى مقر إقامته فى المكسيك ، واتخذ ستالين لنفسه جلاداً هو لافرنتى بيريا ، وبعد موته انقض مالينكوف وبولجانين وخروشوف على هذا الأخير وقصموا رقبتة فى اجتماع المكتب السياسى للحزب ، وهكذا ..

كسل شعب يكون شعباً من العبيد عندما تكون رقبة الإنسان مصيرها فى يد الحاكم، ومعها رزقه أو لقمته طبعاً. بائع الفجل كان حراً فى حياته فى بلادنا وفيما يعمل من أجل رزقه ولقمة أولاده، لا يمكنك أن تتعرض له بالإيذاء أو أن يصل هذا إلى حد تعذيبه وقتله، مساعد نيابة تخرج أمس من الجامعة يمكنه أن يحرك الدعوى الجنائية ضد من يرتكب جريمة كهذه ، كنا إذ ذاك عبيداً وأصبحنا أحراراً عندما أصبح وكلاء الوزارة والدبلوماسيون يضربون بالشلايت ويحبسون فى الأقبية، عندما أصبحت رقابنا تقطع لمجرد الاحتجاج على خراب البلد واحتلالها بواسطة "عصابات الهمج الصهاينة"، بأحكام إعدام تصدر فى مقر القيادة الذى كان مرسى لسفن الملك الفاسد الذى انصلحت أحوالنا عندما تخلصنا منه، كنا عبيداً عندما كان رجال القانون عندنا من نوع البسنهورى - الذى ضرب فى قلعة القانون بأيدى رعاى يقودهم رعاى، ووحيد رأفت، وقضاة يقدمون على الانتحار عندما يرغمون على مخالفة ضمائرهم، وأصبحنا أحراراً عندما لم يعد هناك داع لذلك، عندما أصبحت محاكمنا يرأسها أمثال جمال سالم والدجوى، كنا عبيداً عندما كان عندنا أطباء مثل أنور المفتى، الذى صدر حكم بإعدامه أيضاً، كنا عبيداً عندما كان لدينا أدباء يعيشون من دخل مؤلفاتهم، حياة متواضعة طابعها النقشف، بلا شك، مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم، فهذه هى الحياة التى يريدونها، حياة "راهب الفكر"، وأصبحنا أحراراً عندما أصبح كتابنا يخاطبون لجان وزارة الثقافة ومجالسها ، هذا إن كان هؤلاء يقرءون ما يقدم

إليهم، وليس الجمهور، فليس هناك جمهور، فالعبيد — سواء في الدنيا الجديدة أو القديمة، لا يقرءون .. إنهم مشغولون بلقمة تلقى إليهم، فقد رأوا الوزراء يقال لهم: أنا ما عنديش حد يستقبل، لماذا؟ لماذا لا يحق للوزير أن يستقبل؟ لأنه ليس حراً، إنه عبد مملوك. "أنا أطرده معلى!" — وعندما طرد الوزير ممتاز نصار، خرج من مكتبه ووراءه "قانون" يمنعه من كسب لقمته خمس سنوات! هذه هي الحرية التي نلناها بعد العبودية . لعنة الله عليها وعلى من جاء بها إلى يوم يبعثون ..

## أوجاع الخصخصة :

قرأت محادثة في مجلة عالمية ، مع جنرال ألماني كان رئيساً للأركان في ألمانيا الغربية ، عند توحيد شطري ألمانيا . وكان مما قاله أن مشكلة توحيد القوات المسلحة ليست في التسليح أو التدريب، كل هذا مقدور عليه ، إنها تتمثل في أن إنسان ألمانيا الشرقية ليس هو إنسان ألمانيا الغربية ، إنه فصيلة مختلفة . للقارئ أن يمسك بخريطة العالم ويتأمل دول أوروبا الشرقية وأحوالها قبل وبعد اندحار الشمولية . إلا أن هذه الدول سوف تجد من يمد يده إليها لينتشلها من أحوال الحكم الشمولي ، فهي ما تزال أعضاء في النادي الغربي وأجزاء من التراث اليهود مسيحي الذي بدأ يسود العالم منذ أربعة قرون ومازال يسوده بفعل تقدم المعرفة ووسائل القوة وتنوعية الحياة . إلا أن الأمر يختلف تماماً في دول العالم الثالث كما يسمى ، وكما نعرف فإن العالم الأول يضم كندا والولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا واليابان ودول أوروبا الغربية وإسرائيل (أنا لا ذنب لي في هذا ، فالتقسيم له قواعد ومقاييس في مستوى المعيشة والأجور والتعليم والنظام السياسي والإداري .. إلخ ، ستجد أن جميع المراجع العالمية تتبع هذه

المقاييس ) أما العالم الثانى فهو - أو كان - الاتحاد السوفيتى وتوابعه الأوربية ، بقية العالم هو العالم الثالث، وهذا أصبح الآن ينقسم إلى خمس فئات ، إذ إنه لا يمكن أن نساوى بين الأرجنتين ورواندا مثلاً . مصر الآن تصنف على أنها من الفئة الثانية ، بس من تحت .. يعنى ليس دوننا - بحكم المقاييس التى ذكرناها - سوى البلدان المصدرة للخامات فقط . وسوف تجد أن هذه الفئة الثانية تضم جميع دول العالم الثالث التى ألبسها دكتاتور أو آخر عباءة الشمولية . التطبيق الشيوعى فى دول العالم الثالث يأتى مصحوباً بالتخلف الأصلى ، الفقر والجهل والمرض - هذا التالوث التاريخى - تتكون منها نقطة البداية ، إنها ليست النتيجة النهائية ، الفرق هنا يشبه ما تجده فى حالة اثنين أدمن كل منهما الحشيش والخمر مثلاً ، أحدهما كان شاباً صحيح البنية ، والثانى عجوز معتل ، بدلاً من أن "يمشى جنب الحيط" ، فعل بنفسه هذا . أصبح واضحاً تماماً أن الشمولية تتطوى على تطبيق لدرجة مما يسمى "التماسك الاجتماعى" social cohesion " يفوق بكثير ما هو مطلوب لتحقيق الأمن ، فردياً كان أم جماعياً ، وعلى انتقاء لكيان الفرد يقتل الموهبة ويدمر الشخصية وتتلقى معه الأدمية تماماً . ولكنه مريح جداً للحاكم الذى يريد أن يرث الأرض ومن عليها وما عليها . إما الشيوعية وإما الشيعة أو شىء مماثل لها ، وقد رأينا واحداً من حكام دولة عربية إفريقية يمارس الأولى ولما أوشك أن يسقط لتأمر أعوانه عليه ، انتقل إلى الثانية . الفكرة واحدة، تكوين فرق من القوات تثير الذعر فى النفوس وتقتسم الغنيمة. هناك ثلاث كوارث، إذا أصابت واحدة منها - أو أكثر طبعاً - مجتمعاً أو آخر، فإنه يصبح مثل المريض بالإيدز، لا يمكن علاجه إلا بالموت، ويا ويل من سيدفنونه، هذه الكوارث هى: تدخل الجيش فى السياسة أو خروجه بأى درجة عن واجبه فى الدفاع وخدمات الطوارئ، ثم: استيلاء الدولة على النشاط

الاقتصادي أو سيطرتها عليه، ثم : استخدام الدين في ممارسة السياسة وإدارة الحكم . آلاف الأمثلة من التاريخ القديم والحديث لك أن تتفق سنوات في دراستها إذا شئت . النظرية ليست جديدة على الإطلاق .

مجتمعات كثيرة بدأت تحاول التخلص من نتائج هذه المصيبة الكبرى: الشمولية. منها مصر كما نعرف: الجهود التي تبذل صادقة، ولكن المشكلة ليست سهلة، إنها تشبه تماماً حالة المدمن الذي يريد أن يكف عما جلبه لنفسه. ولكنه سرعان ما يكتشف أن : أولاً : الانقطاع عن الصنف لن يؤدي إلى شفائه من الأضرار التي نجمت عنه، خلايا مخه التي تلفت لن تعود إلى الحياة لمجرد أنه "بطل الشيء"، سيظل يعاني من دمار جهازه العصبى. أو إذا كنت تفضل التشبيه بمرضى الإيدز، فإن هذا الأخير لن يتخلص من الفيروس اللعين بمجرد الإقلاع عما كان هو الطريق الذي جاء منه أصلاً .

ثانياً : بداية العلاج تصيبه بتقلصات فظيعة تجعله يحن إلى الصنف، ويأتى عليه أوقات يحس فيها بأنه جلب لنفسه مصيبة بأن لجأ إلى الطب النفسانى، وأنه كان أحسن حالاً وأهدأ بالأقبل أن يفعل هذا بنفسه، ليس هناك أى إشباع لحاجاته الملحة ..

حالة مصر تشبه حالة قطار توقف فى المحطة. قطار به بعض الأعطال والمشكلات الآلية ولكنه يسير بشكل لا بأس به. توقف فى المحطة وبينما السائق يتناول رشفة من كوب الشاي، دخل واحد من الركاب وقذف به من باب القاطرة وحل مكانه. لم يعرف ماذا يفعل بهذه الأذرع المحيطة به فبدأ يجربها. بقية العمال افترضوا أنه لابد لديه دراية بما يريد عمله، فتركوه أول الأمر، وإذا بالقطار يندفع بسرعة مخيفة ومتزايدة، حاولوا مقاومته فاتضح أنه ليس وحيداً فى عملية الاختطاف هذه فمعه جيش من الفتوات، صيحات المصابين من جراء مقاومة بقية أفراد العصابة امتزجت

بصيحات ركاب الدرجة الأولى وعربة الطعام وعربة مخصصة للسائحين. خرج القطار عن القضبان ولكنه مضى يزيد من سرعته ظناً منه أن القطار مزود بعجلات من المطاط، انقلب القطار وتبعثرت العربات هنا وهناك، مات من الركاب نحو ربع مليون، وجرح كثيرون، سرعان ما تكاثرت الطيور الجوارح إلى حد أن الدنيا أظلمت من كثرتهم، وعندما هبط المساء جاء الضباب من أعماق الصحراء ينهشون الأحياء والأموات، فالجيفة ملأت أنحاء المنطقة.

تخيل نفسك رئيساً للجنة مهمتها إنقاذ الموقوف ورفع العربات تمهيداً لنقلها إلى ورش السكة الحديد، وأيضاً إسعاف من تبقى من الركاب. بعض أفراد من الدرجة الأولى وعربة الطعام اندسوا بين ركاب الدرجة الثالثة والمتسبطين فوق السطح وأخذوا يحرضونهم على ركاب عربة الطعام وعربة السواح، وسرعان ما استجاب لهم الجرحى والجياع، وأنت وأعضاء اللجنة مضطرون لحماية أنفسكم أولاً من الهجمات الشرسة من الحدايات والضباع وأيضاً من الفتوات الذين أصبحوا الآن يتحكمون في بقية الركاب باستخدام التحريض وإشعال نيران الغيرة، أصبح هؤلاء يعتقدون أن الفتك بالسواح سيفسح لهم مكاناً فوق السراير المريحة، وأنت تعرف أن الفتوات قد استولوا على السراير وعلى ما تبقى من الطعام في عربة الأكل، بل واختطفوا الصحون والأدوات وأخفوها ليتجروا بها بعد ذلك، وأنت تصرخ في التليفون مطالباً المصلحة بإرسال عربات إسعاف وعربات نقل وأوناش لرفع العربات.. وهم يقولون لك أنهم لعدم توفر هذه الإمكانيات، قد تعاقدوا مع شركة أجنبية ستأتى بإمكانياتها الحديثة لتفتح مستشفيات ميدانية ونقطاً لتوزيع الطعام والأغطية، فبرغم أن الحادث وقع في يوليو إلا أن الشهور مضت وجاء الشتاء، وسرعان ما تكتشف أنت أن الشركة ليست فاعلة خير، فالدنيا ليس فيها فاعلو خير على هذا المستوى، بل إن

أفرادها بينهم هم أيضاً نصيبهم من الفتوات والأفاقين وسماسة الخراب والنصابين وطالبي العمولات وأمناء القروض .. إلخ .  
الترجمة الأكثر صدقاً لهذا الموقف هي :

— حكومة وقطاع عام بها عمالة في غاية التضخم وبطالة مقنعة تجعل البنى آدم يكف عن أن يكون آدمياً، أجره زهيد لا يفي باحتياجاته وليس مطلوباً منه أن يعمل شيئاً على الإطلاق، خصوصاً وأن أفواجاً جديدة من الخريجين سوف تأتي غداً على الأكثر .

— ولكن هذا الفرد لديه شيء من السلطة، من الساعى إلى رئيس الشركة، من رجل الأمن إلى الوزير، وعندما يبدأ الانفتاح يأتي رجال الأعمال الذين تجرى الفلوس بين أصابعهم . ومن أين هذه الفلوس؟ من البنوك، التي هي نفسها أصبحت دائنة لكل شركة صناعية أو شركة مقاولات بعشرات الملايين، ولكنها لا تستطيع أن تكف عن التمويل .

— كل فرد في الحكومة يمارس فرض الإتاوة على كل إجراء مطلوب، والإجراءات كثيرة جداً، لن نستطرد هنا لأن القارئ قد شبع من حكايات تبسيط الإجراءات أمام المستثمرين وأيضاً مما ينشر عن "الدرج المفتوح" .. إلخ .

— الدخول في السوق العالمية يحد من اللجوء إلى طبع البنكنوت ، فهناك رقابة صندوق النقد وغيره ، العملة المحلية تتخذ وضعها الصحيح والصادق ، وهو أنها لا تزيد على واحد من عشرة مما تدعيه . أنا عندما زرت روسيا سنة ١٩٦٣ كان للروبل ثلاث قيم ، واحدة رسمية والثانية غير رسمية (الأولى جنيهان ونصف والثانية ثلاثة جنيهاً ونصف ، على قارعة الطريق أما السعر الحقيقي فهو الدولار يشتري بأربعة روبلات مع أن سعره الرسمي دولار وواحد من عشرة) . طبعاً التصرفات العصبية تزيد الأمر سوءاً ، منها ما وقع عندنا في أوائل الثمانينيات عندما صدر

قرار بمنع التحويل من الحسابات الخاصة ، "اللى عنده دولارات يجيبها وأنا اخصص له احتياجاته" - نكسة من نوع جديد هذه ، وأنا حضرت اجتماعاً للغرفة التجارية الأمريكية كان من بين المدعويين إليه المرحوم السيد كمال حسن على رئيس الوزراء إذ ذاك ، والسيد مصطفى السعيد وزير الاقتصاد ، الأول دعا الثانى ليجيب على سؤال عن مدى استعداد الحكومة لإعادة النظر فى هذا الإجراء الفظيع ، وكانت إجابته certainly not ، يعنى بالقطع لا ، سرعان ما اتضح أنه بالقطع نعم ، فالمشكلات الاقتصادية لا تتحل بالقرارات وإلا ما كانش حد غلب ، هذه العملة تسببت فى مزيد من انهيار الجنيه ، أما الإجراء الآخر فكان أنكى وأضل سبيلاً وهو إصدار قرار بشأن تدفع الرسوم الجمركية على السلع المعمرة بالدولار ، أدى هذا إلى تزايد سعر الدولار بمعدل عشرة قروش كل طلعة شمس! فى كلتا الحالتين لم يكن الأمر يقتضى عبقرية آدم سميث لكى نتوقع النتائج. السلطة تتطلب شيئين : المفهومية والإخلاص. أحدهما لا يكفى . بعد هذا اقدمت الحكومة على رفع كبير لسعر الفائدة لتشجيع الناس على الادخار بالجنيه ، وحدث هذا فعلاً وباع الكثيرون أرصدهم بالعملات الأجنبية ، وأمكن تثبيت سعر الدولار لعدة سنوات ، فقط ، مرة أخرى ، مثل هذه المشاكل تنفع معها السياسة الحكيمة طبعاً ، ولكن إصدار القرارات أسهل بكثير من أن يكون عملاً له قيمة أو له فائدة ، تماماً كأن يصدر الطبيب قراراً بشفاء المريض ، سواء من الإدمان أو من الإيدز . ارتفاع سعر الفائدة هو نفسه شئ بالغ الضرر للمستثمرين وللإقتصاد بأكمله . وقد بدا ارتفاع سعر الدولار يفرض الآن نفسه ، لأن ثباته كان نتيجة إجراء إدارى ، لا اقتصادى .

— ارتفاع سعر العملة الأجنبية يرفع سعر كل شئ فى الدنيا ، موجة غلاء فظيعة تأتى مع الخصخصة ، يصاحبها ظهور شنيع لما أسميناه "السلع الاستفزازية" ، وهو تعبير يدل على إقرارنا بأننا

"غلبة" - حسناً، نحن فعلاً كذلك، للأسباب المذكورة في كل ما سبق . الغيرة ليست هي العاطفة الوحيدة التي يحس بها البشر ولكن الحرمان يقدم أرضيه ناعمة وخصبة تماماً لزرع الحقد وتدبير أحداث الأقصر، الضباع ومن وراءهم يلعبون على هذا الوتر، وهذه من ألين المشكلات التي تصاحب التحول.

- عندما يجد المستثمرون الأجانب أنهم يأتون بعملاتهم بأسعار مشجعة ثم تتزايد هذه الأسعار بشكل يعرضهم للخسائر فإنهم طبعاً لا يتورعون عن أى عمل يحميهم منها ، بما فى ذلك الهرب بما تطوله أيديهم .

- الخصخصة نفسها ، بمعنى بيع الشركات ، تكاد تكون أصعب شئ فى العالم ، من الذى سيقبل على شراء شركات :

١- غارقة فى الديون .

٢- مثقلة بالعمالة والبطالة المقنعة .

٣- معداتها قديمة وتكنولوجيتها متخلفة .

- الوضع السياسى : عندما تعلن الحكومة أنها تفتح عصراً جديداً من الحرية والديموقراطية ، وهى النظام السياسى الذى يناسب الخصخصة وي جلب ثقة المستثمرين ورجال الأعمال العالميين ، فإنها طبعاً لا تستطيع أن تقاوم عملاء الخراب بإجراءات القمع أو الحراسة أو التعذيب والاعتصاب ( هذا البند الأخير من أمجاد الثورة ، لا أنصح أجهزة الأمن بممارسته إذ لا أظن أنهم سيستطيعون أن يعثروا على الكفاءات المطلوبة ، "قرج" الذى صاح كمال الشناوى يستدعيه ليطلقه كالكلب المسعور على سعاد حسنى، كان من بقايا العهد البائد ، مثل بقية رجال الفكر والفن والرياضة ، الذين انقضوا بعد ذلك ) ولكن الاستقرار السياسى مطلب أساسى ، لكى لا نندأوى بالتى كانت هى الداء بحركة غير مباركة .

- على الصعيد السياسى أيضاً ، لابد من إعادة "دولة

المؤسسات" ، ثم "سيادة القانون" ، استمرار الشمولية الإدارية يتقافى مع الحرية الاقتصادية التي لا بد منها للخصخصة ، رجال الأعمال لن يستثمروا - سواء بإخلاص أم بغيره ، وأنت تقول لهم أنك "ستصادر نشاطه إذا انحرف" أو ستأتى فى أى يوم وتقول له أنه بنى مصانعه "من أموال الشعب" - الديمقراطية إذن ! فقط .. الأحزاب .. إلخ ؟ الحرية تكون للجميع ، بما فى ذلك أعداء الحرية وسماسة الخراب .. ، الحرية لك لوحدك وإلا أيه ؟ فى أوربا وأمريكا وكل العالم الحر ، ينشئ الناس ما يريدونه من أحزاب ، فما هذا ؟

هذا واحد من أوجاع الخصخصة ، "سيندروم" الخصخصة .. النظام السياسى ؟ هل نفتح الباب ونعرض لما جرى فى الجزائر والسودان ؟ أم نقله ، وبذلك تستحيل الخصخصة ، أو تصبح مجرد شعار ؟

### العالم الثالث وأنظمة الحكم :

يقول ابن خلدون فى مقدمته إن "الملك منصب طبيعى للإنسان" وأن البشر يستحيل بقاؤهم فوضى دون "حاكم يزع بعضهم عن بعض" ، وأن هذا بمقتضى الطبيعة البشرية هو "الملك القاهر المتحكم" ، وهو محق تماماً فى ذلك ، فالحكومة أكثر شروا الحياة ضرورة ، وقد اجتهد المفكرون فى إيجاد الوسيلة للحد من شرها وتعظيم فوائدها ، وكما قال ونستون تشرشل عن الديمقراطية الغربية ، أنها "أسوأ الأنظمة ، إذا استبعدنا البقية من المقارنة" ، كما هو واضح من هذه الكلمة اليونانية ، فهى تعنى حكم الناس لأنفسهم ، أو على الأقل مشاركتهم فى صنع القرار فى الأمور التى تمس مصائرهم وفيما يعيشون به من نوائح وقوانين . وقد وجد علماء الإدارة المحدثون أن الديمقراطية لم تعد أساساً

للحكم فقط ، بل أيضاً لإدارة المؤسسات ، والذي يتابع ما يستجد في علوم القيادة الإدارية ، سيجد أن القضية علمية وليست أخلاقية ، إشراك العاملين في اتخاذ القرار ليس مقصوداً منه مجرد تحقيق العدالة ، بل الوصول إلى الرأي السديد ، والذي أصبح في ظل مقتضيات العصر أكثر تشعباً وتعقيداً من أن يقدر عليه فرد مهما بلغ من الحصافة .

و الواقع أن فكرة الديمقراطية ليست شيئاً جديداً ، فكما جاءت حضارة الإغريق بملوك ليسوا آلهة ، فإنها سبقت ذلك بعلماء ومفكرين ليسوا كهنة ، وهذا لأول مرة في تاريخ البشر . من حامورابي ملك بابل القديمة ، إلى هيروهيتو إمبراطور اليابان الحديثة ، كان الحكام يرثون السلطة بحجة أن دماءهم مقدسة ، وبالتالي فلا حق لأحد أن ينازعهم الملك أو حتى يبدى أى اعتراض على ما هو - والعياذ بالله - مشيئة إلهية ، والذين لا يدعون أنهم آلهة ، مفوضون ، مزودون بالتفويض الإلهي .

كانت أثينا القديمة أول مجتمع يمارس قدراً من إشراك سكانها في الحكم ، التجربة الأولى في الحكم "الجمهوري" أو "الديموقراطي" ، ويهمننا هنا أن نؤكد أننا نستخدم هذه التعبيرات بمفهومها الأصلي ، وليس كما كان في "جمهورية ألمانيا الديمقراطية" وأشباهاها . لماذا تجمد هذا الاتجاه لما يزيد على ألفى سنة من تاريخ البشرية ؟ لماذا لم تتبلور الفكرة بظهور الأحزاب - وهي ضرورية لممارسة المعارضة - إلى أن جاء هذا منذ ما يزيد قليلاً على مائتي سنة ؟ الذي نظنه أن الأفكار والفلسفات والعقائد هي أمور لا تتطوى بمفردها على إمكانية تطبيقها . كان لابد من مجئ الطاقة الآلية لكي يتسنى تحريم العبودية ، وكيف يكون للعبيد حق التصويت ، سواء في أثينا القديمة أو أمريكا الحديثة ؟ كان لابد من مجئ الصناعة لكي يتحقق قدر من الرخاء يمكن من سمو الإنسان فوق غرائزه ،

ولكى يستطيع أن يهتم بأمور المجتمع ويعبر عن موقفه منها دون أن يكون مهتداً بتجويح أطفاله ، كان لابد من مجئ الطباعة لى تَخذ الصحافة موقعها كسلطة رابعة ، كان لابد من اكتشاف الكهرباء لى تأتى الإذاعة كوسيلة جديدة لتتيف الجماهير ولحماية الرأى العام والارتقاء بالمعرفة والفنون — صحيح أنه فى ظل الأنظمة الشمولية تحولت هذه الوسائل إلى أدوات للقمع والإذلال . إلا أن هذا يدلنا على أن الفلسفة السياسية تصلح لتوجيه هذه الوسائل نحو ما فيه خير المجتمع ورفاهيته ، ولكنها ليست بديلاً عنها ولا تصلح وحدها لتحقيقها .

بل إن الديموقراطية هى أيضاً سلاح ذو حدين. الواقع أنها بدون وعى جماهيرى رفيع المستوى ، خليفة بأن تخنق نفسها. وقد رأينا الاقتراع الديموقراطى الحر يأتى بالنازية إلى السلطة فى مطلع الثلاثينيات، وبالماركسيين فى شبلى بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، وبالأصوليين فى الجزائر بعد هذا بفترة ماثلة. وبينما نحن هنا لسنا فى مجال الحكم على هذه المذاهب بأنها خير أو شر، فإننا لا نقول عنها إلا أنها النقيض المباشر للتعددية الحزبية. وفى أوائل حكم النازيين قام عدد من المفكرين وأسائذة الجامعات فى ألمانيا، مع عدد من قادة الجستابو، بحركة اعتراض عليه، وما كان من أدولف هتلر إلا أن قاد بنفسه فرقة من القنلة انقضت عليهم فى بيوتهم وأماكن عملهم فى مدينة ميونيخ ، ولم يحدث بعد ذلك شىء من هذا لغاية انتحار هتلر، وأما فى النظم الماركسية، فقد كان الخروج على مبادئ الحزب جريمة يعاقب مرتكبها بأى شىء على الإطلاق، وأما الأصوليون فنحن نراهم يستحلون دماء الناس وأموالهم وهم خارج السلطة، فما بالك وهم حائزون لها! وقد تعب فلاسفة السياسة فى هذا التناقض، هل يجب على الديموقراطية أن تسمح بقيام جميع الأحزاب بحرية تامة، بما فى ذلك من يرفعون شعارات الحزب الواحد والأيدولوجية المستبدة ؟ أم أنه يجوز لها

أن تحظر قيام أحزاب كهذه ؟ وهم يسمون هذه المشكلة  
Toleration of the Intolerant، يعنى احتمال — أو "إطاقة" — من  
لا يطبقون غيرهم ولا يحتلمون أى معارضة وإذا وصلوا إلى  
السلطة فإنهم سيمحقون جميع الأحزاب والفرق، ولما كانوا  
سيصلون إليها بالافتراع الديمقراطي فإنه لأمر عجيب حقاً أن  
تستخدم الديمقراطية التعددية فى القضاء عليها! كيف يسمح لفرقة  
أن تدخل كأس العالم بينما شعارها أن يكون اللعب بالنبوت وليس  
بالكرة ؟

الواقع أن الضمان الوحيد للديموقراطية هو الوعى الجماهيرى  
الذى لا يسمح بالانتقاص منها مع قدر من الرخاء يجعل الناس  
قادرين على التفكير فوق مستوى اللقمة . كان هذا هو ما رآه  
العالم يحدث فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، وبينما كان الخديو  
إسماعيل يعبر عن أمنيته أن تصبح مصر قطعة من أوروبا، كان  
جد هيروهيتو يشرح الطريقة. "لقد أصبح لزاماً علينا أن نطلب  
المعرفة من كل مصدر توجد فيه فى أنحاء العالم وسوف يكون هذا  
هو الأساس الذى يقوم عليه الجهاز الإمبراطورى" — صدر هذا  
الإعلان سنة ١٨٦٨ وأطلقوا عليه اسماً يشبه "العهد الموثوق"،  
ورفع اليابانيون شعار "دولة غنية وجيش قوى" صحيح أن  
الممارسة الكاملة للديموقراطية (والذى نقصده بهذا هو فصل  
السلطات وإطلاق الحرية التامة للصحافة وللأحزاب ، وعدم وجود  
سلطة مركزية يحق لها تعطيل الدستور أو إقالة الحكومة إلا بنص  
الدستور). صحيح أن هذه الممارسة لم تأت إلا سنة ١٩٤٦ ،  
وبدأت بأن أصدر الإمبراطور إعلاناً شهيراً آخر فى بدايتها، يفيد  
بأنه قد تنازل عن ألوهيته وأقر بأنه مخلوق عادى مثلنا ، فقد كان  
إرساء الديمقراطية التعددية فى اليابان عندئذ — وبعد البدء فى  
حركة التحديث الشاملة بثلاثة أرباع قرن — كان هذا ترجمة لواقع  
مادى حاصل ملموس، وليس مجرد أمل فى حرية لا تتوفر لدى

السناس أركانها. فهل هناك تجربة أخرى فى دولة أخرى خارج أوروبا وأمريكا ؟ نعم، الهند ..

جاء استقلال الهند بعد إعلان إمبراطور اليابان عن آدميته بعام واحد، وحظى حزب المؤتمر بالأغلبية ، برئاسة زعيم له تاريخ طويل فى الكفاح، قضى فى سجون الإنجليز ما مجموعه خمس عشرة سنة. هل نجحت الهند فى الوثوب فوق قرون طويلة من التطور فى عالم الغرب؟ أم عاقتها عن ذلك عوامل الفقر والتخلف؟ الوراثة تقليد قديم وراسخ فى تراث القارة الهندية. وليس سرا أن جواهر لال نهرو بذل جهوداً كبرى ليتخذ من ابنته الوحيدة وريثاً له فى الزعامة ، وليس سرا أنها لم تكن راغبة فى ذلك وأنها تزوجت برغمه شاباً سكيراً لم يكن هو راضياً عنه ، ما لبث أن مات بعد أن أنجبت منه ولديها واكتسبت اسم أسرته "غاندي" ، ليست هناك صلة بالمهاتما العظيم ، ولكن للاسم سحره طبعاً ، ورثت أنديرا رئاسة الوزارة بعد موت أبيها بسنتين ، ضماناً للاستقرار فى صفوف الحزب وفى المجتمع كله، (وقد رأينا سيريمافو باندرانیکا ترث زوجها فى سريلانكا المجاورة ، ثم ابنتها ترثها بعد ذلك ) ، وبدأت تعد ابنتها الأصغر سانجاي لورايتها ، معروفة نواتره فى الفساد مما أدى إلى سقوطها وسقوط الحزب فى أواسط السبعينيات ، بل وإلى حبسهما معاً ، إلا أنه بعد أربع سنوات فقط ، ورغم فشلها فى مشروعات كثيرة منها تعقيم الذكور للحد من التكاثر، عادت أنديرا إلى رئاسة الوزارة ، وبعد اغتيالها سنة ١٩٨٥ - وكان سانجاي قد قتل فى حادث طائرة - أصبح الأخ الأكبر راجيف هو الوريث الطبيعى ، برغم أنه - مثلها - لم يكن راغباً فى ذلك ، ومثلها ، سقط ومعه حزب المؤتمر ، الذى رأسته بعد اغتياله زوجته الإيطالية المولد ، والذى تعد ابنتها بريانكا لوراثة العرش أيضاً. من بين أربعة وخمسين عاماً مضت على استقلال الهند حاز نهرو وسلالته ما يقل قليلاً عن أربعين

عاماً منها . هل القيادة الصينية محقة في أن الإصلاح الاقتصادي يجب أن يسبق الديمقراطية ، وأنها لا تأتي من ميدان السلام السماوى ؟

### مجانية التعليم : من أمجاد الثورة :

ولا هو مجانى، ولا هو تعليم، ولا هو تعليم مجانى ؟  
مبدئياً كده، ليس هناك شىء مجانى فى هذه الحياة . الأصل فى الحياة أن الإنسان يعمل ويتقاضى أجره أو ربحه إذا كان صاحب عمل، ثم يعطى جهده نظير احتياجاته ، اتفاقية تبادل هى: القطن المصرى فى مقابل الأناناس . ولكن السلطة تظل تتدخل فى هذه التعاملات بكل ما تتصف به من بهيمية .

لا يوجد شىء مجانى فى هذه الدنيا ، إلا إذا كان غير مرغوب فيه . وأرجو من القارئ أن يسامحنى عندما أتى بمثل بلدى كان يشيع فى بلدتى بورسعيد أيام أن ولدت ونشأت فيها : "مفيش حاجة ببلاش إلا العمى والطراش"، نعم ، إذا كنت لا تريد أن تبذل جهداً أو مالاً ، اجلس كالتنبل إلى أن يأتبك هذا وذاك فى أرذل العمر .. كفاك الله شر هذا وذاك .

ما معنى مجانية التعليم ؟

معناه أن أولادنا يذهبون إلى المدارس والكليات (ومنهم من يستخدمون البورش والبنى — إم — دبليو لهذا الغرض ، وهؤلاء هم الذين احتجوا على أحكام الطيران ، حقاً ، العمى والطراش ، بعيد عنك) ، ويجلسون فى غرف الدراسة ولكنهم لا يدفعون المصاريف .

هل هذا يجعل التعليم مجانياً ؟

من الذى يدفع تكاليفه إذن؟ المبانى والكتب والمدرسين .. إلخ؟  
هل القائمون على التعليم فى الدولة السنية قد ورثوا عربة عن أجدادهم وهم ينفقون من إيرادها على أداء هذه الخدمة ؟

الواقع أن المكاتب الفاخرة والسيارات المرسيديس والبودي جارد والتغطية الإعلامية ، ثم رواتب الوزراء ومعاونيهم وكل ما هم فيه من نعيم، كل هذا من فلوسنا .. وإلا فمن أين يأتي؟ أولياء أمور هؤلاء الذين يتعلمون مجاناً، يدفعون ضرائب للدولة، والدولة تتبع المحاصيل والمشغولات التي ينتجها هؤلاء أنفسهم ، فما معنى كلمة "مجاني" هنا ؟

لست أفهم ما يتشدد به بعض الناس في هذه المسألة ، هل الحكومة صاحبة فضل على الناس؟ أنها تعلمهم؟ الواقع أنها لو كانت تعلمهم لما كانت هذه طريقتهم في التفكير .  
ثم لماذا ؟ لماذا يكون التعليم مجانياً ؟

هل هو أهم شيء في الحياة ؟ أهم من المأوى واللقمة وعلاج المرضى ؟ هل يأتي قبل كل هذا ؟ الواقع أن من لا مأوى له سيكون كالحقبة الضالة ، لا يمكن أن يتعلم ولا أن يكون آدمياً .  
لماذا إذن لا تكون المساكن والملابس مجانية هي أيضاً ؟ لماذا لا نقيم موائد الرحمن لكل هذه الملايين ؟ لماذا لا نوزع كوبونات الكستور والدمور على الناس ؟ نعود من جديد إلى مغامرات الشيوعية . طبعاً هذا مرغوب فيه ، لأن إذلال الناس وسلب كرامتهم يجعل السيادة عليهم أسهل بكثير .

ثم هيا نتأمل شئنين : مستوى التعليم ، ومدى مجانيته .  
الدولة نفسها أقرت — قبل أن يرحل الزعيم الخالد عن دنيانا — أن مظاهرات "الاحتجاج على أحكام الطيران" (لا حول ولا قوة إلا بالله!) . قام بها طلبة كليات القمة الذين هم بالضرورة أبناء الأغنياء الذين ينفقون الألوف على الدروس الخصوصية ومن هنا التحقوا بهذه الكليات .

التعليم إذن :

أولاً : يتكلف الألوف في الدروس الخصوصية .

ثانياً : لا يحدث في المدارس بل في البيوت .

هكذا يقول بيان الحكومة . وبالتالي فإن الفقراء لا يتعلمون .  
هل هذه مجانية التعليم ؟

إنها - مجانية التعليم هذه - لا هي موجودة ، ولا هي مطلوبة، إنها في الواقع خدعة حقيرة ، ومصيبة كبرى. خصوصاً إذا كانت السلطة قد بددت ثروة البلد في مغامراتها الحمقاء ثم تأتي لتقول لي : أنا جاعلم ابنك أو بنتك مجاناً ! تسرق محفظتى وفيها راتبي الشهري ثم تعزمنى على العشاء الذى هو ساندوتش طعمية. وجايف، لا يؤكل !

هل لابد أن ندخل الجامعات، كلنا ؟!

هل هناك شعب كله جامعيون ؟ مليون خريج جامعى كل سنة؟! نحن نعرف أن خريجي كليات مثل الطب أصبحوا عمالة فائضة، بعضهم يشتغل بكل شىء إلا الطب، وأيضاً يعرف عما يشتغله أكثر بكثير مما يعرف عن الطب . "كلمتين وبس" كما يقول  
عمو فؤاد .

هذا لأن التعليم أصبح هو أيضاً شعارات ، وسيلة "للطبطة" على الشباب، أو عوا تزعلوا ، كلكم حاندخلوا الجامعة . رأيت خريج زراعة يشتغل بإصلاح التليفزيون فى العجمى ، ورأيت ساعياً فى مكتب صديق لى يحمل ليسانس الحقوق ودبلوم تخصص. لماذا ؟ لأن الغرض من التعليم هو التعليم ، ولأن الجامعة هى عقل المجتمع ، وليست مؤسسة لتوزيع الشهادات ، مكتب التنسيق يقول لك أين تذهب ، وأين تذهب يعطونك قصاصه ورق تخرج بها إلى الحياة ، تبلها وتشرب ميتها. خريجو الآداب فى الآداب الأجنبية لا يتكلمون اللغة التى درسوها، وخريج الطب لم يلمس مريضاً فى حياته. كان عادل إمام صادقاً تماماً : بلد بتاعة شهادات.

والشعار المرفوع : ابن أفقر الناس يدخل الجامعة ! ليست هذه هى القضية. المهم أن تكون جامعة أولاً، ولا يهم بعد ذلك ابن

من يدخلها. أنا قضيت خمس سنوات فى هندسة القاهرة، ومن بين سبعمائة طالب كان هناك أصحاب سيارات يعدون على أصابع اليدين . وكانت مصروفات الدراسة خمسة وأربعين جنيها سنويا، خفضت ونحن فى منتصف الطريق إلى خمسة وعشرين ، كان هذا إذ ذاك يعادل مرتب شهر أو شهرين لصاحب دخل متوسط . كان الأساتذة فى الطب من نوع كامل حسين ونجيب محفوظ، وفى القانون من نوع السنهورى ووحيد رافت ، وفى الهندسة من نوع همام محمود ووليم سليم ، أما فى الآداب فلست فى حاجة لأن أذكر أسماء ، لا أحد يعرف أبناء من كان هؤلاء ، وليس منهم من هو واضح أنه سليل أثرياء أو باشوات . الواقع أنه كان من السهل أن تتجنب دفع المصروفات، كان هناك طريقان: أولهما "المسابقة"، كل سنة توجد مسابقة لطلاب الثانوية (التوجيهية كما كانت تسمى)، فى كل فروع التعليم ، إذا نجحت فيها نلت المجانية طوال سنوات الجامعة ، الطريق الأخرى هى أن تتجح بدرجة معقولة من التفوق وتتقدم باستمارة معدة لهذا الغرض ، تقول فيها أنك - أو ولى أمرك - غير قادر على دفع المصروفات فتتال المجانية .

التعليم ليس قضية سياسية . مجانيته أداة سياسية ، بكل تأكيد . كنت طالبا فى بورسعيد الثانوية ، وكنت شاعرا ، ولهذا كنت أتبادل الحب والإعجاب مع مدرسى اللغة العربية. وجاءنا مرة مدرس قضى بضعة أيام ثم نقل إلى الإبراهيمية ، وذكر لنا هذا "الإبراهيمية - جاردن سيتى" - لم أكن أعرف شيئا عن جاردن سيتى وظننت أنها لا بد أن تكون حديقة عامة مثل "جنيحة فريال" فى بورسعيد . انتابنى شعور لا أنساه عندما اختفى من حياتى هذا المدرس الأديب ، وكتبت له خطابا أعبر فيه عن شعورى ، ومعه رسم للفصل وفيه علامة تدل على موقعى لعلها تذكره بى، جاعنى رده فى الحال، يبدى إعجابه بـ "الرسم الجميل" الذى أرفقته ويضيف أننى لم أكن فى حاجة إليه، أنا أذكرك جيدا، أنت الذى

قلت كذا وكذا في الدرس الفلاني .. هكذا كانت علاقتنا بمعلميها .  
وأنا في الهندسة كنا في محاضرة في موضوع عويص، الأستاذ في  
المدرج أحس بأن نقطة شرحها لم نفهمها جيداً ، فتوقف متسائلاً  
عما إذا كنا فهمنا ما شرحه ، وتصادف أن كانت أنظاري ملتقبة  
بأنظاره، سألتني : أنت فهمت ؟ فلما أجبت نفيًا، قال : ولماذا لم تقل  
ذلك ؟ أجبتني : ربما أكون أنا وحدي الذي لم يفهم، أجاب : ولماذا  
تظن أنني لن أعيد الشرح من أجلك وحدك ؟ هكذا كان التعليم  
عندما كنا عبيداً .

إلا أنه ، حقاً ما فائدة كل هذه الخزعبلات من الفيزياء والكيمياء  
والأحياء وأبحاث الفضاء ؟ إذا كان التقدم الاجتماعي عوضاً عن  
التكنولوجيا والفارما كوبيا وكل أنواع اللوبيا والفاصوليا .. أليس  
الهدف النهائي هو الرفاهية ؟ سنوزع على أنفسنا عمر أفندي  
وملايين الأقدنة وخزائن المجوهرات ونصبح كلنا أغنياء .

### الأقباط :

كلمة "مصر" واردة في القرآن الكريم، مرات عديدة، وهي  
أيضاً تعنى "بلد" أو "قطر" ، خصوصاً في صيغة الجمع  
"الأمصار"، ولكنها مع ذلك تأتي في نصوص سامية اللغات  
"مصريم" - فيما يقال ، كانت اسم مصر في أزمنة سابقة لنزول  
القرآن. ولكن كلمة "خمت" أو "كمت" كانت هي اسم البلد في اللغة  
الفرعونية القديمة ، وكان معناها "الأرض السوداء" إشارة إلى لون  
أرضنا، الذي هو لون الطمي الذي نحن أيضاً مصنوعون منه،  
وإليه نعود . وقد كانت كلمة "القبط" هي التعبير الذي استخدمه  
الرسول الكريم في رسالته إلى "المقوقس - عظيم القبط"، ومن  
كمت والقبط تأتي "إيجيبت" التي يستخدمها العالم كله في الإشارة  
إلى مصر، فيما عدا المتحدثين باللغات السامية، ومنهم  
الإسرائيليون. والله أعلم. ولو ترجمنا "إيجيبتير" حرفياً فإنها تكون

"الخطوط الجوية القبطية"، ولكننا مع ذلك نستخدم تعبير القبط والأقباط في اللغة والمناسبات الرسمية فقط، أما في أحاديثنا العادية فإننا نشير إلى "إخواننا الأقباط" بتعبير المسيحيين، ظناً منا أنه تعبير مهذب وأكثر لياقة، وهو ليس كذلك على الإطلاق، ففي تاريخنا أربعة قرون هي "العصر القبطي" ولا يمكننا أن نسميها العصر المسيحي، كما أن اللغة قبطية والفن القبطي والمتحف القبطي، في كل هذا لا يمكننا أن نستخدم كلمة "مسيحي" بدلاً من قبطي، كل ما هو قبطي مصري، أما مدلول المسيحية - سواء البلدان أو الناس أو الفنون، فشيء مختلف تماماً .

التماسك الاجتماعي ظاهرة أساسية وبالغة الأهمية في حياة البشر. وهي في المجتمع القبلي تتمثل في أعلى درجاتها، القبيلة تضمن للفرد حياته وغذائه وأمنه، وهو يعطيها الإخلاص والطاعة والالتزام. مع التطور، أصبح واضحاً في المجتمع الحديث ضرورة إيجاد التوازن بين التماسك الاجتماعي الذي يحقق الأمن للمجموع ولل فرد، وبين الفردية التي تهين الاستقلالية والحرية، والإبداع والنبوغ .

من هنا فإن كل مجتمع على وجه الإطلاق توجد فيه الفئات المختلفة، والدرجات متفاوتة من الانتماء، والفئات أو الجماعات قد تكون دينية أو عرقية أو لغوية، الأكراد في العراق مثلاً يجمعون بين هذه الخواص الثلاث، وكذلك الفرنسيون في كندا، والطامعون في السلطة والزعامة السياسية يلعبون على ما يجدونه من هذه الأوتار الثلاثة طبعاً، ويملؤون قلوب الناس بالحقد ويصيبونهم بما لا حدود له ولا نهاية، من التعاسة والبغضاء التي يجنون هم ثمارها متمثلة في كل ما تأتي به من النعيم : السلطان وحريم السلطان، قصة قديمة ومعروفة. إنها أحسن تلخيص لتاريخ البشر .

وقد درج الناس على استخدام كلمة "الأقلية" لوصف هذه الفئات

الاجتماعية، لأنهم عادة يتميزون عن باقى المجتمع بأنهم أقل عدداً، والأقليات قد تكون أدنى مستوى من أغلبية المجتمع وقد لا تكون. من أشهر الأقليات وأكثرها أهمية ودلالة الأقلية السوداء فى الولايات المتحدة ، والتي تحولت من عبيد أرقاء جاء بهم تجار الرقيق متكدرسين فى أقيية السفن يجدفون تحت لسع السياط فى ظروف تقوم قيامة العالم فى عصرنا هذا لو استخدمت مع المواشى ، تحولوا من هذا إلى واحدة من أعظم القوى الاجتماعية فى هذا العصر . وهذا بفضل زعيمهم العظيم القسيس الشاب مارتين لوثر كنج ، الذى بنى فلسفته على رؤية المهاتما غاندى للزعامة السياسية التى تقوم على العصيان المدنى لا على العنف أو اللجوء للقوة . وهذا طبعاً كان قد ظهر بين الزنوج الأمريكيين من يدعون إليه ، وما يزالون . فأمام الأقلية عدة طرق تتهجها عندما تحس - أو عندما يجعلها قادتها تحس - بأنها مضطهدة ، وقد ظهر بينهم من يدعون إلى الماركسية لتكون سلاحهم فى محاربة السطوة أو السلطة فى هذا المجتمع الرأسمالى الذى تقف القوى الشيوعية العالمية منه موقف العداء ، ومنهم من دعا إلى الإسلام كسلاح للمقاومة فى هذا المجتمع الذى تسوده المسيحية ، ومنهم من دعا إلى مجرد العنف : النفس والإعتيال .. إلخ ، هذا الزعيم اتخذ الأسلوب الوحيد الذى ينفذ الضعيف فى مواجهة القوى وهو استخدام العقل . أن الإنسان البدائى - والحديث - يغلب الأسود والنمور لا بأنيابه بل بعقله .

والواقع أن الامتياز هو أقوى سلاح فى يد الأقلية الاجتماعية وسبيلها إلى الثبات فى مواجهة الأغلبية بل وإلى التحكم فيها أحياناً، سواء كان معنوياً - كالتفوق فى العلوم أو الفنون - أو مادياً كالثراء . وهذا هو ما توصل إليه اليهود على مستوى العالم، وما توصل إليه الزنوج الأمريكيون ، فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين وبفضل السياسة التى اتبعتها قيادته - تساتيا

جراها" ، هو اسمها بالهندية ، يعنى "قوة الحقيقة، أو الحب" ، وقد كتب كنج يقول أنه كان قد نشأ على الاعتقاد بأن سياسة التسامح التى دعا إليها السيد المسيح لا تصلح إلا للتعامل بين الأفراد وليس الجماعات ، ولكنه عاد فوجد أن المهاتما غاندى هو المفكر الوحيد الذى استطاع أن يترجم تعاليم المسيح إلى فلسفة سياسية قومية وعالمية . ومن هذا الطريق توصل الزوج الأمريكيون لا إلى المساواة التامة فى الحقوق مع بقية المجتمع ، بل لقد سادوا دنيا الفنون والرياضة على مستوى العالم كله وأصبح من بينهم شخصيات و فرق على أعلى مستوى بكل مقياس .

"الأقباط المصريون ليسوا أقلية" ، هكذا يقول البابا شنودة ، وهو طبعاً يقصد أنهم ليسوا مختلفين عن الشعب كله فى شىء وليسوا متميزين حتى يتعرضوا للتمييز . صحيح هذا طبعاً فى قدر كبير منه ، فالأقباط لا يتكلمون اللغة القبطية بل لا يعرفونها، وإذا دخلت كنيسة لتحضر الصلاة فإنك ستجد أغلب الأناشيد الدينية عربية اللغة، أما على الجانب العرقى ، فالأصول العرقية بالطبع مختلفة ، فالمصرى — إذا افترضنا النقاء العرقى، وهو مستحيل طبعاً بعد مضى كل هذه القرون من التزاوج مع كل الأجناس ، سواء كنا مسلمين أو أقباطاً — المصرى قد يكون سليل العرب الذين جاءوا سنة ٦٤١ م ، أو قبطياً من نسل المصريين القدماء — والذين تناسلوا مع الفرس والإغريق والرومان بدرجة أو أخرى أو خالطوهم أو امتصوهم كنازحين ، كما قد يكون — المصرى — سليل التزاوج بين العرب والقدماء الذين اعتنقوا الإسلام ، ولا يبدو أن أحداً يعرف نسبة هؤلاء على وجه الدقة ، فهو تاريخ قديم . كائناً ما كان الأمر ، فالمصريون — أقباطاً كانوا أو مسلمين ، يتخذون أشكالاً متعددة ، حسين فهمى مثلاً مصرى مسلم كما هو واضح من اسمه ، وأحمد زكى أيضاً ، لويس عوض ونجيب الريحانى قبطيان مصريان وهكذا . وكان الريحانى زوجاً لبدیعة

مصابني وهي — مثل الكثيرين من أبناء الطائفة الكاثوليكية ، تبدو "خواجبية" أكثر من حسين فهمي . خلاصة القول أن المصري "النمطي" لا يختلف كثيراً في ملامحه عن البقية مسلماً كان أو مسيحياً . الأسماء هي التي تدل على الهوية الدينية في مصر ، وكما يختلف السلوك الاجتماعي للأقليات كما أسلفنا ، فإن الأقباط المصريين قد يتسمون بأسماء فرعونية ، وكان لى زميل فى المدرسة اسمه تحتمس ، إثباتاً لهويتهم الأصلية ، أو بأسماء مسيحية مصرية (وأغلبنا لا يعرف أن المسيحية انتشرت فى مصر قبل أوربا بكثير) مثل يوحنا ، ومنهم من يستخدم الصيغة الأوربية لنفس هذا الاسم ، وهى "جون" — وأعرف صعيدياً اسمه جون — ومنهم من يفضل الصيغة العربية لنفس هذا الاسم فيسمى ابنه "يحيى" ، جميع هذه الأسماء تستخدم ومعها كل أسماء المسلمين التى ليست أسماء الرسول عليه السلام أو صحابته المقربين . ومن بين أبناء يوسف الشارونى وأحفاده ستجد أسماء "شريف" ثم "شانن" وهى الإذاعية المعروفة ، وهذا اسم عربى صرف من أسماء الغزال ، ثم تجد "جويس" وهو اسم خواجاتى طبعاً ، ثم "رؤوف" وهكذا . أما "يوسف" ذاتها فهو اسم جميع الأديان ولا عجب ، فقد كان يوسف رسولاً عبرانياً ، وكان أيضاً مصرياً عاش ومات فى مصر ، ثم هو مذكور فى القرآن الكريم طبعاً .

الأقباط المصريون إذن قد لا يكونون أقلية لأنهم ليسوا متميزين أو منفصلين ، لا عرقاً ولا لغة (ولا يفوتنى أن أشير إلى تحفة المفكر الراحل جمال حمدان ، "شخصية مصر" وقد أفرد فيها فصلاً عن تفسيره لوجود أقلية دينية فى مصر ولكنها هجرت لغتها القديمة واتخذت العربية ، والفرق بيننا وبين المغاربة فى أن أقلياتهم قطعت العكس ، فهى عرقية لغوية وليس دينية) ولكن هذا لا ينفى أنهم أقل عدداً من المسلمين . وهذا فى طبيعة البشر يخلق إحساساً بضرورة التعويض ، بالامتياز الفكرى أو المهنى أو بوفرة المال

.. الخ .

لغاية .. "الثورة" ، (أمرى إلى الله ، أظن أنه قد آن الآوان لتعديل القاموس والكلمات كثيراً ما يتغير مدلولها في كل اللغات ، ثار يثور ، ثار الشيء أى أمسك به ورزعه فوق الأرض فانهال قطعاً متناثرة) — نعم ، لغاية الثورة كان ما نسميه الآن "السلام الاجتماعى" سائداً بشكل لا نظير له . ويقال أن غاندى كان معجبا بسعد زغلول لأن قيادته حققت وحدة كاملة بين الطائفتين . كان هذا طبيعياً للسبب الذى أسعى إلى إظهاره ، وهو أن ألغن أسباب التعصب والفرقة الاجتماعية هو الفقر ، وقد كان الفقر — ومازال — يتمثل فى القارة الهندية بشكل تحسدها عليه الزعامات السياسية فى أنحاء العالم ! أما المصريون فى عصر سعد زغلول فكانوا طبعا فقراء أيضاً بالنسبة لأوربا ولكنهم لا ينامون على الأرصفة بالملايين ولا يهلكون بفعل الجوع والأوبئة . ومعروف تاريخ الأقباط فى الكفاح ضد الإنجليز وأنهم لم يكونوا أقل تعرضا لرصاص الإنجليز ومشانقهم .

ماذا كان موقف الأقباط من الإنجليز ، من حيث أن هؤلاء وهؤلاء كلاهما مسيحي ، ومصر الآن دولة دينها الإسلام ، وأغلب شعبها مسلمون ؟ كما قلنا فيما سبق ، الإنسان لا يتكون من دينه فقط . هناك وطنه ولغته وأسرته ، وهناك انتماءاته الفردية والفكرية . ومن هذا كله يتكون موقفه السياسى . مبدئياً، الأقباط المصريون أغلبهم أرثوذكس يتبعون الكرازة المرقسية التى يرأسها بطريرك الإسكندرية وسائر إفريقيا ، وهو كرسى بابوية مستقل عن بقية كنائس الشرق والغرب منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، وبذلك فإن العقيدة المسيحية عند الإنجليز وعند المصريين ليست واحدة لأسباب فلسفية دينية والفارق لا يختلف كثيراً عن الخلاف العقائدى بين الشيعة والسنة عند المسلمين ، وإن كان طبعا — كما هو الحال — دائما — مشوبا بالسياسة . نقول

"دائماً"، لأن كل ديانة جديدة تظهر وكل مذهب يتبلور داخلها ، تكون له عواقب سياسية ، خروج موسى بقومه من مصر كان هرباً من اضطهاد فرعون مصر لهم ، وكذلك فإن صحابة الرسول عليهم السلام ، وكل من آمنوا به ، هاجروا معه من مكة لأن "قراعة" قريش أحسوا بأن سطوتهم السياسية بدأت تتحسر وأرادوا أن ينقضوا على المسلمين بسيوفهم ، وهذا طبعاً أدى إلى غزوة بدر وما تلاها من الحروب .

القبطي المصرى ليس "خوaja" بأى شكل ولا بأى درجة، ولا القبطية المصرية خوajaية. ومما يذكر هنا أن "المجاهد الكبير" مكرم عبيد حذف اسمه الأول "وليم"، وكان الوفديون المسلمون يسمون أبناءهم "مكرم" - وكذلك فعل أخواه فكتور (فكرى مكرم) وفريدريك (فريد). وفكرة تعاطف الأقباط مع الإنجليز أو مع الإسرائيليين هي وليدة التعصب الجديد الذى جاء مع الثورة والتي تتحمل مسؤوليته بما جلبته على البلد من هذا الشيء الذى هو التربة الخصبة التي يترعرع عليها التعصب ولا ينمو إلا فيها: الفقر .

الإخوان المسلمون طبعاً موجودون من قبل أن تأتى الحركة المباركة ، بل إنهم تبادلوا صلات الغزل والغرام مع تلك الحركة وزعماؤها احتفظوا بها بعد حل الأحزاب ليستخدموها كأداة ثم استداروا إليها وواجهوها بكل وسائل البطش. ولكن حركة الإخوان لم تتجح بزعامة حسن البنا لأن الفقر لم يكن كافياً، ولأسباب أخرى منها أنها بدأت تدعو لأفكارها لا بالحكمة والموعظة الحسنة بل بالقتال والاعتيالات .

فى فيلم سينمائى فى تلك الحقبة اسمه "أرواح فى البحر"، نرى جارى كوبر يقود زورق نجاة بعد غرق باخرة، ويتخذ وضع "الزعيم" ، وعندما ازدحم القارب أخذ يلقي ببعض الركاب فى البحر لكى لا ينقلب زورق النجاة ، ويموت الجميع . الناس عندما

يجوعون فإن قيادتهم قد تجد أن عليها أن تتخلص من بضعة ملايين لكى يتسنى أن يعيش البقية على القليل المتاح . من هنا تظهر "المذاهب الهدامة" وهو التعبير الذى كانت تطلقه الصحافة المصرية على الشيوعية والإخوان والفاشية متمثلة فى مصر الفتاة مثلاً . إلا أن السلطة — أى سلطة — تستطيع أن تنقض على أوكار الشيوعية وتصادر "خطوة للأمام وخطوتان للخلف" أو "ما العمل" وغيرها من خزعبلات لينين وأشباهه . فقط لن نستطيع أن تصدر المصحف وصحيح البخارى أو مسلم. ولكن الحق ، كما قال على كرم الله وجهه، قد يراد به الباطل. ولدينا من العلماء الأجلاء من أفادونا بأن قتال غير المسلمين أيام الدعوة كان دفاعاً عن النفس وأن الدعوة فى أواننا سبيلها الحكمة والموعظة، وليس المفرقات والرشاشات. ولكن الحقيقة تبقى وهى أن السلطة لا بد أن تدفع عن نفسها تهمة الكفر، وعليه فإن ميكروفوناتنا لا بد أن تعلق فوق صوت المعركة هى أيضاً . خصوصاً عندما تتحول أماكن العبادة إلى مقار للحزب العالمى، ولا بد من أداء الصلوات الخمس فى المسجد لا لأن الله يأمرنا بذلك، فهو يأمرنا بأداء صلاة الجمعة فقط هناك، ولكن الفتاوى — وهى حق لا ينكر، يراد به أمر آخر — تؤكد أن الثواب هنا أعظم، لكى تحكم القيادة قبضتها وتنتشر أنواعاً من ال "يونيفرم" فى مظاهرة فاشستية شبه عسكرية. لا أحد يعترض على الاحتشام ، ولكنه هنا ليس سوى نظير للقمصان السود والزرقي ، رداء عسكري ، وكانوا قد بدأوا يرشون الأحماض الكاوية على كل امرأة لا ترتدى لباس الحزب، بل ويشجعون الشباب على الاعتداء عليهم ، فى إحدى قضايا الاعتصام ، قيل إن الشباب معذورون ما دامت الفتيات يظهرن أمامهم بشكل مثير ! يعنى كونوا ألعن من الحيوان ! من الذى يستطيع أن يحبس غريزته عندما يرى ذراعى امرأة ؟ لا أحد يعترض على " السلام عليكم " ، فهذه تحية درجنا عليها . ولكنها

هنا هي " هايل هتلر " - كل هذا يجد تربة صالحة في المعاناة واليأس والحرمان . من هنا جاء الاعتداء على السواح في مصر ، أسهل طريق لمزيد من الفقر في ساعة واحدة !

يرى البعض أن السادات هو الذى تسبب فى كل هذا عندما استعان بالجماعات الإسلامية لقمع الشيوعيين ، وأنا أقول أنه لا السادات ولا أى سلطة تستطيع أن تثبت دعوة كهذه فى مجتمع يجد فيه الناس أعمالاً يشتغلون بها وحياة يعيشونها ومدارس يتعلم فيها أطفالهم . البطالة والفراغ هي التربة الصالحة لبذور التعصب والحض على العنف ، باستغلال مشاعر الغيرة الطبيعية ، وهي - كما أسلفنا - جزء من سيندروم الخصخصة، والمشاعر طبعاً موجودة أصلاً ، ولكن النظم الفاشية هي أصلح النظم لكبح الفاشية، والوحشية فى قمع حركة الإخوان بدرجة من الفظاعة لم يكن هناك داع لها، لعبت - إلى جانب إفقار البلد - دوراً أساسياً فى تشجيع هذا التيار ، ونذكر القارئ بحادث الاغتصاب الجماعى الذى تعرضت له ابنة أخت واحد من المعتقلين (لعله كان سيد قطب)، إن العلاقة الزوجية التى شرعها الله وسيلة لبقاء الحياة واستمرارها، لا تستخدم كعقوبة إلا عند من هم دون البيهائم ، فالبيهائم تعرف كيف تمارس الحياة كما خلقها الله، ووصفهم بالبهيمية إهانة .. ، للبيهائم .

ولى صديق ينتمى لما يسمى الناصرية ، قال لى مرة :  
أنسيت المحاكم المختلطة (وأنا لم أنسها فقد كان بيتنا مواجهاً لها فى بورفؤاد) ، أنسيت أنه لو تشاجر أبوك مع خواجه ، فإنه كان سيقف موقف المتهم المحكوم عليه سلفاً من قاضى تلك المحكمة؟  
أجبتة : ربما ، ولكنى واثق من شىء واحد ، وهو أن أمى لم يكن سيؤتى بها إلى قشلاق الشرطة العسكرية فى الجيش الإنجليزى ليغتصبوها وأبى وأنا واقفان نتفرج . أنا شخصياً أفضل أن أقف أمام القاضى الخواجه (كان فى المحاكم المختلطة قضاة مصريون ،

وكان أحدهم يقضى الصيف في بورفؤاد وكان صديقاً لنا ،  
المرحوم المستشار حسين إدريس) — أفضل هذا كائناً ما كان الظلم  
الذى سيقع ، فالظلم من طباع الأدميين ، أما الاغتصاب فلا ،  
أفضل هنا أن أقتبس هذا العنوان الذى رأيتَه على غلاف فى  
معرض الكتاب ، لكاتب سودانى كانت صورته بردائه الوطنى  
على الغلاف : ملعون أبوكى بلد !

هكذا يجعلون الإنسان يتجرد من أصوله ، يسخط على التربة  
التي نبت منها ، يحاول أن يخرج من جلده ، يهرب من دمه كما  
يقول إبراهيم ناجى . حقاً! ملعون أبوكى بلد إذا كان هذا ثمن  
الوطنية ، أمى وابنتى وكرامتى وكيانى ، ووجدانى ، وكل شىء .  
كل هذا من أجل اقتسام الغنيمة ؟ من أجل حفنة جنينيات فى  
الخزنة؟! أنا واحد ممن لم يؤخذ منهم شىء ، ولم يكن لدى وليس  
لدى الآن ما يستحق الأخذ . الذى أخذوه منى هو مصر ، قبطيتى  
هو ما أخذوه ، وليس لدى أمل كبير فى استردادها ، لأنه لم يبق  
منها هى أيضاً ما يستحق أن يسترد .

يذكرنى هذا بجلسة على مقهى فى المغرب ، نبيل شعث ، لم  
يكن وزيراً إذ ذاك ، كان — وما يزال — يملك مؤسسة "الخبراء  
العرب فى الهندسة والإدارة" — وأنا كنت واحداً من هؤلاء الخبراء  
١٩٧٩ — ١٩٩٤ ، وكنا فى رحلة عمل ، وكان ثالثنا واحد من  
شركائه ، (وهم لبنانيون وفلسطينيون ومصريون) دار الحديث ،  
وسألنى هذا : قل لى يا سيد حديدى ، أنت واحد ممن أضيروا من  
الثورة ؟ ونظرت إليه قائلاً : أنت سعيد بضياع الضفة الغربية  
والقدس ؟ دعنا من سيناء ، أنا منشغل بالقضية ، ما رأيك ؟ قال :  
"من حيث النتائج طبعاً .." — تبين لى عندئذ حقيقة وضع عبد  
الناصر عندهم ، أنه صاحب دكان يبيع الـ "مليك شيك" — لبن  
الجاموسة ممزوجاً بدم أصحابها .

هذا التيار الدينى ، ما أثره على الأقباط ؟ وعلاقتهم بأبناء

وطنهم ؟ عندما يسمعون من يقول أن أموالهم ومتاجرهم حلال لنا وأنهم كفرة .. إلخ ؟ السادات هو الذى فعل هذا ؟ إن الشرور التى أزاحها عنا عندما أزاح العصاينة الإجرامية، تكفى — فى رأى — عذراً له فى هذا، ولا ننس الأزمات التى أخذ يجتازها واحدة بعد واحدة بما يكفى لتحطيم أشد الإرادات صلابة. ولكنى أكرر: مثل هذه الشعارات وما يصحبها من ممارسات يستجيب لها الناس بقدر معاناتهم، وهى تحدث فى كل بلد. فى الحزب الجمهورى الأمريكى يوجد جناح يدعو إلى "العودة إلى يسوع"، وكان زعيمه فى وقت ما شاباً رأيته يتحدث فى التليفزيون. لا يشعر به أحد ، فرصته فى الزعامة أن ترتفع نسبة البطالة أو تحدث كارثة قومية .. إلخ . شرفت وسعدت بقاء البابا شنودة مرة واحدة فى حياتى ، منذ أكثر من ربع قرن ، فى دير فى وادى النطرون، كنت قد ذهبت مع جمع من الأصدقاء لنزور مهندساً تربطنا به علاقات عمل وأخوة وصداقة ، كان قد دخل لتوه سلك الكهنوت — رحمه الله كان إنساناً نادراً ، وتصادف أن رأينا البطريرك وهو يقترب منا، وكان قد أسمى هذا الزميل باسمه ، "شنودة" ، تكريماً له ، قدمنا له أنفسنا ، كنا حوالى خمسة عشر أو أكثر ، والتقطنا صوراً تذكارية، وبدأت المحادثة : "شوف يا أستاذ حديدي .." هكذا كان ينادى كل واحد باسمه كما لو كان يعرفه : كان ما يزال فى شبابه إذ ذاك طبعاً ، لو أن نعمة الله عليه ما تزال ، فلن أدهش كثيراً لو أننى قابلته الآن ، ووجدت أنه مازال يذكرنى .

## أنت مالك ؟

"أسرّ إلى أحد المقربين من الرئيس الراحل سنة ١٩٦٦ أن صفيّاً من أصفياء الرئيس جاءه ضابط من المخابرات يشكو جريمة ارتكبت أمامه وهي أن فلانة بنت أخت المعتقل فلان ، وهي لم تتجاوز الرابعة عشرة، قد أحضروها وفسقوا بها جندياً بعد آخر حتى ماتت . وذعر الصفيّ لهذا النبأ وذهب في سيارة الراوية إلى بيت الرئيس لينهى إليه هذا النبأ الخطير الذي تجرد من إنسانية الإنسان ونقل مصر إلى حياة الغاب ، وإذا بالرئيس يقول له "وأنت مالك ؟ هي بنت أختك ؟"

الدكتور . إبراهيم عبده : تاريخ بلا وثائق

أظن هذه القصة وحدها تكفي لتفسير ما يدور في الشوارع من علامات الساعة. إذا كان كل واحد منا غير مختص سوى بشؤونه هو؟ ومع إقرارى بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، فإننى أقطع — كما قلت في ندوة قريبة — بأن مشكلات الفوضى التي تسود شوارعنا لا يمكن أن تتحسن، بل إنها ستظل تسير من سيئ لأسوأ، لأنها مشكلة نفسية، ولا علاقة لها بالأحزمة ولا بأى شيء آخر يمكن استيراده .

سألنى صديق لى : ألا ترى أننا نتحسن ؟

أجبتّه : إننى أرى قدراً هائلاً من التحسن والجهود الطيبة المثمرة . فى مجال المادة فقط ، جسور وكبارى وانفاق وطرق ومطارات وفنادق سياحية ، وشبكة تليفونات تذكرنى بيوم فى أوائل السبعينيات ، استبدبى الغيظ وانطلقت إلى السنترال الذى

اتبعه ، مبنى يشبه الإسطبل (ليس إسطبل داوود ، إسطبل العتريس) ، ودخلت إلى حيث كان المسؤول ، وقلت له : ما عنديش حرارة بقالى شهر! أجاب الشاب : يابيه شيل التليفون اللى على مكتسبى إذا كان فيه حرارة بيقالك الكلام . المجارى مثلاً ، سبق أن ذكرت الوحل الذى غرقنا فيه ، لولا عشرات الألوف من الملايين التى أنفقت أخيراً على شبكات الصرف الصحى من أموال المعونات الأجنبية لما كنا الآن غارقين فى الوحل وحده . كبارى القاهرة كلها تجددت ، لم يبق سوى كوبرى قصر النيل ، وأدعو الله ألا يقربوه ، أن يتركوه لنا كذكرى عزيزة لماض عزيز .

أما الإنسان فليس إصلاحه سهلاً. الكثيرون منا يصلحون سياراتهم أو أجهزة حياتهم، ولا يجدون إصلاح أنفسهم بهذه السهولة .

استرداد القيم .. أصعب كثيراً من إضاعتها ، ولكن هناك أساساً يجب إرساؤه ، وهو أن نصارح أنفسنا والعالم بالحقيقة ، لكى نتجه إلى المجتمع الدولى ، وهو ما دأبنا عليه الآن أكثر من نصف قرن، علينا أن نكتسب احترام العالم ، والناس لن يحرصوا على صالح من يخدعون أنفسهم ومن يلهجون بحمد من أذلوهم وأوردوهم أسوأ وأهون مصير .

كتب واحد من الفضلاء منذ فترة يقول أن أبناءنا فى المدارس ، لديهم كتابان ، أحدهما يقول إن محمد نجيب هو أول رئيس جمهورية لمصر ، والثانى يقول إن جمال عبد الناصر هو أول رئيس جمهورية لمصر ، ما الذى نريده من المجتمع الدولى ، إذا كان يرانا نكذب على أبنائنا فيما لديهم من كتب تعليمية هزلية ؟

قرأت منذ فترة عنواناً فى جريدة : "مداهمة وكر للدروس الخصوصية" - وكر للتعليم ! علمونا أنه من الأفضل أن نمنع الخير لكى لا يقال اشمعنى هذا ولماذا ذاك . أما سكان المعمورة وأصحاب الفيلات التى "تقام فوق الربى والتلال" كما قال المرحوم

سراج الدين ، فمسألة أخرى .

مازلنا نتحدث مع أبنائنا في المدارس، ولأنفسنا في التلفزيون والصحف، عن ثورة يوليو المجيدة مع أننا نبذل كل جهد لمحو أمجادها! ألم نرجع الأحزاب بعد إلغائها؟ ونتصالح مع الدنيا بعد أن قطعنا علاقاتنا مع طوب الأرض نفسه؟ ألسنا نستमित من أجل الخصخصة بعد تأميم كل شيء، لا من أجل ظروف طارئة، بل لأن هذه هي "عقائدنا". كل هذا كان مجرد أخطاء صغيرة يجرى تصحيحها؟

من الأمور التي طالما حيرتني : جاء الإنجليز إلى مصر وطبعاً أثار هذا نفس رد الفعل الذي حدث عندما جاء نابليون . أحدهما كان سيأتى على كل حال ، فقط ما يحيرني هو ، عندما وقف زعمائنا في وجه هذا وذاك ، هل كانوا - مصطفى كامل أو محمد فريد - يفضلون الحكم العثماني ؟ لقد اكتسبنا بعض المعرفة من الإنجليز ، أظن أكثر الناس تعصباً لن يستطيع أن ينكر ذلك، فما الذي تعلمناه من العثمانيين ؟ الضولمة يا ترى أم الظلمة ؟

قرأت في شبابي كتابين جلبا لمؤلفيهما قدراً لا بأس به من السخط، الأول هو "الإنجليز في بلادهم" للدكتور حافظ عفيفي، الذى كان من أقطاب الاقتصاد والسياسة وكان رئيساً للديوان الملكى لغاية قيام الحركة المباركة، والثانى "أمريكا الضاحكة" لمصطفى أمين، مؤسس أخبار اليوم. كل منهما يصف الحياة فى تلك البلدان. شئنا أم لم نشأ، هؤلاء هم صناع حضارة العصر الذى نعيشه، أكرههم كما نشاء وقاطع كل ما جاؤوا به، من قرص الإسبرين إلى قرص الكومبيوتر، فقط قل لى ما الذى سيبقى مما هو ليس مصدره هذه الحضارة ؟ إن كوب ماء تشربه يجعلك تتعامل معهم .

هؤلاء الناس تهذبوا كثيراً . الذين تحفل كتابات أدبائهم بأبشع روايات التنكيل بالعبيد (كوخ العم توم مثلاً - جذور) والتفرقة

العنصرية (السيرة الذاتية لمارتن لوثر كنج - روايات وليم فوكنر) هؤلاء منحوا أرفع أوسمة من الكونجرس والرئاسة الأمريكية لامرأة سوداء مكافأة على أنها قبل ذلك بأكثر من أربعين عاماً تحدثت قانون ولاية آلاباما ورفضت أن تعطى مقعدها في حافلة الركاب الأمريكي أبيض . وهؤلاء أيضاً ، بعد أن مارسوا الاعتقال والسجن ضد زعماء الأمريكيين السود (فقط بدون تعذيب أو اغتصاب) جعلوا من عيد مولد الزعيم الزنجي مارتن لوثر كنج عيداً قومياً تعطل فيه الأعمال ، وتعهدوا أن يعينوا رفيق كفاحه أندرو يونج سفيراً لهم في جنوب أفريقيا التي كانت أمثلة العالم في بشاعة التفرقة العنصرية ، وأصدروا قانوناً بمقاطعة تلك الدولة إلى أن تثوب إلى رشدتها وتسترد ضميرها ، ومما يذكر أن هذا كان في عصر الرئيس ريجان وأنه رفض التوقيع على القانون ، وطبقاً للدستور ، أعيد إلى الكونجرس حيث حصل على الأغلبية التي جعلته يصدر رغم أنفه القبيح .

أكبر خطأ نرتكبه هو أننا نقيس أداء المؤسسة الحاكمة في مثل هذه الدولة بمقياس واحد وهو مدى استجابتها لمطالبنا واحتياجاتنا ، وننسى أنها - تلك المؤسسة - مسؤولة عن شعبها هي وليس عنا نحن ، لقد بلغ المواطن الأمريكي أقصى ما وصل إليه النوع الإنساني من جودة الحياة ومن الحرية ومن المعرفة ، وبدلاً من أن نسمح لسماصرة الخراب أن يجعلونا ننام ونصحو على الحقد والغيرة فقط ، أظن أننا نحقق صالحنا أكثر عندما نجعل هذه القوة المهيمنة على هذا العالم تتهذب أكثر مما تهذبت وتحس بقدر من الاحترام نحونا . سوف يتحقق هذا القدر من الاحترام عندما يرون المجتمع يعمل على تنوير أجياله وتبصيرها بحقائق الأمور وعندما نبدأ في تعليم أجيالنا أن لهم شأننا ببلادهم لأنهم يملكونها . صحيح أن قديراً كبيراً من الحرية في إبداء الرأي على الأقل قد تحقق - وأظنه أقصى ما هو ممكن في ظل الظروف التي اجتازناها بل

وربما يكون متجاوزاً لما هو مأمون ، ولكن خداع أجيالنا وأحفادنا بالحديث عن أمجاد الثورة – وعلى رأسها إرساء تكنولوجيا التعذيب ودعم الممارسات الحيوانية المصاحبة له – هذا لا يكسبنا احترام العالم. ولكننا درجنا على الانصياع للقيادات الأثمة الضالة، والتي تعلمنا – كما في إيران مثلاً – أن نكره كل شيء وكل بلد وأن نحقد ونغار بدلاً من أن نتصافى ونتعاون ونتعلم . كم سفارة سينسفونها وكم فرقاطة سيتقبونها وما هي نهاية كل هذا ؟ الإدمان مشكلة كبيرة عندهم ، وهم يبدأون علاج المدمن بأن يجعلوه يقف أمام الجميع ويعلن أنه مصاب بالإدمان وأنه جاء هنا لأنه يريد أن يتخلص منه . التحسن يبدأ بممارسة الصدق .

أنا لست أنادى بثورة أخرى من جانبي (واحدة كفاية !)  
الواقع أنني لا أنادى بشيء لأننى لست أرى أين أذهب بإحساساتي  
أنا نفسى ! ولكنى أرى أننا فى حاجة إلى قدر هائل من الصدق ..  
مع العالم ومع أنفسنا .

## ارتقاء البشر :

علينا أن نلتقط أنفاسنا وسط التيارات التى تعبث بنا كخيوط مسرح العرائس ، ونذكر أن جهوداً صادقة ومخلصة قد بذلت فى سبيل إبعاد البشرية عن الصراع الدموى وتقريبها من النزاع القانونى وتحكيم النزعة الإنسانية ، من معاهدة جنيف (١٨٦٤) ثم (١٨٦٨) بشأن معاملة جزحى وأسرى الحرب ، وإعادة صياغتها بما يتفق مع أساليب القتال المستجدة سنة ١٩٠٦، والتى اعتمدها الدنيا كلها، ثم إنشاء عصبة الأمم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، صحيح أنها عجزت كما لو كانت "جامعة" – عجزت عن فعل شيء فى الغزو الإيطالى الهمجى للحبشة سنة ١٩٣٥، ثم فضائع اليبان فى منشوريا والصين، والحرب الأهلية الإسبانية. ولكن العصبة كانت أساساً لنشوء الأمم المتحدة عندما انحلت سنة

١٩٤٦، جهود صادقة كثيرة بذلت، إنشاء محكمة العدل الدولية،  
محدثات نزع السلاح فى أوائل الستينيات، اتفاقيات الحد من  
الأسلحة الاستراتيجية "سولت"، ثم جهود القوات المتحالفة وحلف  
الأطلسى فى الكويت ثم اليوسنة ثم كوسوفو، سوف تجد برغم هذا  
كله من يقول لك : أتدرى لماذا يعملون هذا ؟ ثم يشعر بأنك  
مخدوع ويأتىك بنظرية أو أخرى . لقد قطعت البشرية شوطاً  
طويلاً نحو هويتها، وانتقت أقبح شروها وأقطع ضلالاتها بفعل  
تقدم المعرفة وتطور الفلسفة، وتهذبت طباع الناس نتيجة لرغد  
الحياة . ولكن أكبر الكوارث هى الزعماء والحكام الذين - لجهلهم  
ولكونهم أقرب إلى الضباع منهم إلى البشر - يريدون استعباد  
شعوبهم لتستمر سيطرتهم عليهم، ويرفضون كل محاولة لتعليمهم  
أو تنويرهم، إذ إنه عندئذ سيفقدون رواتبهم وامتيازاتهم،  
والمليارات التى لو أنفقوها على خير هؤلاء المظلومين لربما  
اكتشفوا آدميتهم الضائعة .

لقد أصبحت صناعة الاستجداء فى بلادنا علماً له أصول  
وقواعد ويخضع لبحوث العمليات وحسابات الانتظار والتدفق  
والتقاطر . كلما رأيت "المنادى" كما يسمونه. (وذات مرة أشار إليهم  
الزعيم الخالد وقال أنه يعرف أنه "يقتسم مع عسكري البوليس")،  
سألت نفسى ! ما الذى يعمله هذا؟ ثم: كم مليوناً أنفقت من رزق هذا  
الغلبان على أمور مثل محاربة الاستعمار ومساندة حركات التحرر  
وكسر احتكار السلاح وبيان ثلاثين مارس وأول إبريل.. إلخ؟

## هل هناك مخرج ؟

عايز الدوغرى ، لأ مفيش .

الذى قد يكون ممكناً هو "اللفظ فيه" ولنتحدث فى هذا قليلاً.  
عندما يذهب إلى الطبيب شخص مريض منذ أمد طويل ، رفض  
العلاج وأهمل صحته وأسرف فى الطعام والشراب والمعدل ..

إلخ ، فإن الطبيب نادراً ما يقول له إنه لا يرى فائدة من حالته ، عادة يسحب رويته ويكتب عليها شيئاً ، خصوصاً إذا كان قد تقاضى منه أتعاباً ولا يجوز له أن يتركه يذهب لا يائساً من صحته فحسب ، بل ناقماً لضياح فلوسه أيضاً.

ونحن أضعنا الكثير جداً، سبق لى تقديره بمجمل نتاجنا القومي لمدة ثلاثين سنة، ومن ضمنه الغطاء الذهبى لعملتنا التى ظلت عشرات السنين تساوى الجنيه الإسترلينى مضافاً إليه بضعة قروش .

وأنا طبعاً لن أتخذ وضع الطبيب، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

أنا مجرد إنسان يفكر، لست زعيماً ولا "ناشطاً" بأى درجة (كسبنا هذا المصطلح)، الواقع أننى شديد البغض للزعامة السياسية، وأتمنى لو اختفى كل الزعماء وحل محلهم مديرو أعمال أذكىاء يتحدثون عن الربحية والإنتاجية والكفاءة والفاعلية، وليس عن الماركسية والأصولية والماوية والمشعارفافية، حتى الناصرية! وأنا أيضاً فى الخامسة والسبعين وليس هناك احتمال كبير أن يحدث ما أتمناه قبل أن أرحل عن دنياكم أنا أيضاً.

ويالها من دنيا !

ما الذى أتمناه ؟

أتمنى - كما ذكرت فى إهداء هذا الكتاب لحفيدى الصغير - أن أكون مخطئاً . ولذلك يا قارئى العزيز ، أرجو أن يكون اعتراضك على أفكارى وتصوراتى، وليس على شخصى الضعيف كما يقولون. فهو ضعيف فعلاً وحقاً ولا يستحق المهاجمة. أنا لست شهيراً، أعترف بذلك ، فقط قد لا يكون هذا ضرورياً، ما أكثر المشاهير الذين لا يستحقون لا الشهرة ولا غيرها .

أتمنى أن يقف حفيدى وهو فى أوائل شبابه ، على كورنيش

النيل فى أى موضع ، فى أوائل أغسطس ، يتأمل المياه الحمراء وهى تجيش ، وتدور حول نفسها ، كما تقول أغنية أم كلثوم ، "الموجة تجرى ورا الموجة عايزة تطولها" ، فقط هذه موجات دورانية غريبة الشكل ، ولكنها تنبض بالحياة ، تحمل مصر فى طياتها الكثيرة ، تدور وتدور ولكنها فى زحفها الخفى إلى دمياط ورشيد ، تجرف الكثير من الشوائب ، شوائب ذكريات تثير الأسى واليأس ، كابوس صحوت منه ، لم يكن حلماً ، كان كابوساً فظيلاً وحقيقياً . والآن ، قد عاد النجاشى إلى عرشه .

عندما تصل الدوامات إلى البحر ، فإنها تدخل فى صراع مع أملاحه ، حرب يكسبها السردين الدمياطى البورسعيدى ، حفيدى سيعجبه ذلك ، لأنه هو أيضاً دمياطى بورسعيدى — وعلى الجانب الآخر دقهلوى منوفى ، يحب التربة الخصبة .

سوف يتلفت حوله ليشهد الناس على روعة المنظر ، وعلى صدقه ، أنه مصر ، مصر نفسها .. ولكنه لا يكاد يجد أحداً .. أين ذهب سكان مدينة المعز لدين الله؟! آه ، مات منهم ملايين انتهت أجالهم على مدى السنوات العشرين الأخيرة ، ثم ماذا ؟ لم يولد أحد .. وأصبحت شوارع المحروسة هادئة ونظيفة ، قليلة العربات وقليلة المهملات والمخاط ، وغيره من نفايات البشر والجاموس .

الناس أصبحوا قليلين ، فقط كأنهم ورثوا عن الذين رحلوا — عن دنيانا — كل ما كانوا يعرفونه . وهكذا فإن تلميذ المدرسة يعرف ما كان يعرفه أربعة أو خمسة تلاميذ ، والمدرس لديه عشرون تلميذاً على الأكثر ، إلى حد أنه يعرف أسماءهم .

الجامعات انكسبت إلى ثلاثة ، منها واحدة فى الصعيد ، إلى جانب جامعتين أجنبيتين، تتقاضيان مصروفات طائلة من أولاد الـ .. الأغنياء، مما أدى إلى تخفيف الضغط على الجامعات الأهلية .

الشحاذة أصبحت هواية ، تمارس بعض الوقت فقط ، فمع قلة التعداد — انخفض إلى أقل من ما كان عليه عندما رحل جده عن

دنيانا ، ولذلك فقد تحسنت الأجور ، ليس إلى الحد الذى كانت عليه عندما كان جده شاباً ، فهذه أيام مضت . فقط لا بأس بشيء من التحسن . يجعل الناس يختارون ما يريدونه ويدفعون ثمنه ، إنهم لا يتوقعون صدقة من سلطة كانت هى التى أوجبتهم إليها .

تحسنت الزراعة كثيراً مع تجديد التربة ، وترك المزارعين كأنما ولدتهم أمهاتهم أحراراً . المحكمة الدستورية قضت ببطلان قوانين الإفساد الزراعى ، وذكرت فى حيثياتها أن الناس أحرار فيما يملكون ما داموا لم يكسروا القانون .

التوفير أخذ أبعاداً هائلة . لم يعد معظم المصريين ينفقون الجزء الأكبر من دخولهم على هواياتهم المألوفة : ربع طن من الشاي والقهوة كل يوم ، والدخان والمعسل ، وممارسة ألعاب الزواج والطلاق وكأنها عشرة طاولة . فقد أخذوا جرعة كبيرة من العوز فى العهد الفائت ، وأصبحوا الآن أكثر حرصاً على رزق الأولاد ، أو "الولدين" ، فمن مميزات لغتنا العتيدة ، أن فيها صيغة المثنى .

القيم عادت بدرجة لا بأس بها ، وأصبح الناس يتعاطفون بدرجة معقولة ، الشباب لديهم أمل فى الزواج ، ذات يوم . المشكلة هى المسكن ، وإن كان رحيل الأجيال القديمة قد فتح الباب إلى مساكنهم ، التى ليست آيلة للسقوط .

يعبر واحداً من الجسور الجديدة التى بنيت على النهر فى الفترة بين الألفيتين ، عندما جرى تجديد البنية التحتية ، إنشاؤها من جديد ، ومعها الطريق الدائرى ، ومترو الأنفاق وكوبرى قناة السويس ، يتكئ على سور الكوبرى ويتأمل الدوامات مرة أخرى ، ويأخذ به العجب الذى أخذ بشوقى : "أمن السماء نزلت؟ أم فجرت من عليا الجنان .. جداولاً تترقرق؟"

المصارحة ، "جلاسنوست" — هذه الكلمة الروسية التى بدا بها جورباتشوف عصره الجديد التى دخلت قواميس اللغات الأخرى — هى مفتاح الموقف .

أنا لا أزعم أن ما أتمناه مسألة سهلة ، أو حتى ممكنة ، كل ما أقوله هو أن حل مشكلتنا لن يصبح ممكناً إلا إذا تحققت هذه الأشياء . كيف تتحقق ؟ سؤال يستلزم حشد العقول وتعبئة شعور قومي بالكبرياء وبأن الفقر المدقع والمنلة القضيعة ، واليأس القاتل ، والعبودية التي تأتي من الحرمان ، ليست قدراً محتوماً .. لقد تم إيقاف عربات القطار على عجلاتها ، وإصلاح القضبان ، وجئ بقاطرة جديدة ، وإبعاد الضباع ومظلات الذباب إلى حد كبير ، ولكن المشكلة هي الركاب . لا بد من "الجلاسنوست" .

من السهل أن نبني مدرسة وقد بنى الكثير منها ، ولكن إصلاح ما يدور بداخلها ليس بهذه السهولة .

لو صدقت عزيمتنا ، كلنا ، لا مجرد قيادة أو أخرى ، لو أمكن لكل منا أن يسترد مصر ، يسترد روحه وضميره ، سيصبح كل شيء ممكناً ، وبسهولة !

## من قائمة الإصدارات

سقوط نجم مخابرات إسرائيل جمال الدين حسين	موسوعة تاريخ حضارات العالم	ترجمة: زينات الصباغ
عملية السرب الأحمر جمال الدين حسين	رحلة الكلمات	د. على فهمي خنيم
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر صلاح بدوي	تكنولوجيا الحضارات القديمة هشام كمال عبد الحميد	هشام كمال عبد الحميد
اختراق الأمن الوطني المصري عبد الخالق فاروق	عصر المسيح الدجال	هشام كمال عبد الحميد
الهجرة وتهديد الأمن القومي العربي د. عبد اللطيف محمود	العدل والحرية	سالم القمودى
دعوى الجواسيس أحمد فؤاد	أعلام النهضة العربية الإسلامية	صلاح زكى
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات يوسف هلال	حوارات الزمن الصعب	محمد همام
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم أحمد أنور	العلوم للجماهير	ترجمة د. عبد الحكيم بدران
أزمة الانتماء في مصر عبد الخالق فاروق	رسالة إلى العقل العربي	د. عبد الحكيم بدران
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر عبد الخالق فاروق	خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
محاضرات في القانون الدولي العام د. ميلود المهدي	صراع الحضارات (الثبات والانحلال الآخر)	شعب عبد الناح
قضية لوكيرين وأحكام القانون الدولي د. ميلود المهدي	عالم المعلومات الجديد	ترجمة بهاء شاهين
أزمة لوكيرين والغزو من بيت لحم الأمريكى د السيد عوض	الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
العلاقات الليبية - الأمريكية د السيد عوض	حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغنى
الإخوان والعسكر حيدر طه	صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
التعريف في الجزائر (مناخ تبدل ضد المهمة ... د عثمان سعدى	خفائيا المستقبل	محمد الحديدي
البربر الامازيغ عرب عابرة د عثمان سعدى	بدائل العولمة	د. سعيد اللاوندى
أيام الفزع في الجزائر خالد عمر بن قفه	عبد الرحمن ممدى يوسف الجويدية الهرب الى السلام د سعيد اللاوندى	د. سعيد اللاوندى
من يحمي عروش الخليج (المنطق والتبعية) د أحمد ثابت	اشكالية ترجمة معاني القرآن الكريم د سعيد اللاوندى	د. سعيد اللاوندى
إعدام صحفى	البياد العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية عبد الله العتالى	عبد الحكيم بدران
الصحافة المشبوهة سيد محمود	البياد في الوطن العربي، المنارة، الثابت، د عبد الحكيم بدران	د. محمد عبد الشفيق عيسى
عمرو موسى، ملفات سرية، شباب نصار	العرب وإسرائيل، ميزان القوى ومستقبل ... د محمد عبد الشفيق عيسى	حسين معلوم
عبد الناصر واليمن د عبد العزيز القالح	السلام الاسرائيلى (قرابة في الشروعات الاسريمية) د حسين معلوم	السوق الشرق اوسطية: من هربزل الى ... د إكرام عبد الرحيم
الوحدة اليمنية حسين كروم	مشروع للانتحار القومي؟ مصباح قطب	محمد خليفة
عبد الناصر والذين كانوا معه سيد ندرى	السلام القتالك، سلام، د هولان، العرب، عبد الخالق فاروق	عبد الخالق فاروق
عبد الناصر .. هذا المواطن سليمان الحكيم	اوهام السلام	عبد الخالق فاروق
حوارات عن عبد الناصر سليمان الحكيم	في جنازة المقاطعة العربية لاسرائيل شفيق أحمد على	شفيق أحمد على
عبد الناصر .. والاخوان (أسرار العلاقة الخاصة) سليمان الحكيم	عبادة الشيطان على شفاف النيل حسين عبد الواحد	حسين عبد الواحد
المرأة التي أحبها عبد الناصر شفيق أحمد على	الماسونية خليل إبراهيم حسونة	خليل إبراهيم حسونة
ظل الوثيس (منكرت مصره جعفر سدر مكتب نسو) عزازى على مرزاي	الحركات الهدامة خليل إبراهيم حسونة	خليل إبراهيم حسونة
عبد الناصر وعبد العظيم والزمن الجميل حسن صابر	القدس خليل إبراهيم حسونة	خليل إبراهيم حسونة
البيديل الناصري (قرابة في يوم التنظيم ناصري) سيد زهران	حماس .. حركة المقاومة الإسلامية خالد أبو العمرين	خالد أبو العمرين
ناصرية جمال عبد الناصر جورج المصري	يهود ضد إسرائيل ياسر حسين	ياسر حسين
ناصرية الناصرية الغائبية جورج المصري	أساطير التوراة عاطف عبد الغنى	عاطف عبد الغنى
براءة سياسية أحمد شرف	الحرب العالمية الرابعة ياسر حسين	ياسر حسين
بولتنى والمشير (منصة الحقيقة) محمد متولى / سيد زهران		

عبد الله البردوني .. حياته وشعره د. أحمد عبد الحميد	هشام كمال	الهندسة الوراثية في القرآن
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة أحمد عزت سليم	صالح الورداني	الحركة الإسلامية في مصر
مغامر حتى النهاية إدوار الخراط وآخرون	صالح الورداني	الكلمة والسيف "محنة الروي في تاريخ المسلمين"
من حديث الشعر والشعراء د. جميل علوش	عيسى المسيح والتوحيد محمد عطا الرحيم ترجمة: عادل حامد	الحكومة والمياسة في الإسلام ترجمة: سيد حسان
الصنعة الفنية في التراث النقدي د. حسن البنداري	رسالة التوحيد للامام محمد عبده تحقيق د. محمد عمارة	الإسلام والعروبة
جدلية الأداء التبادلي د. حسن البنداري	مجلدي رياض	قيثارة السماء "الشيخ محمد رفعت" محمود توفيق
أباطيل الضرعونية سليمان الحكيم	أحمد الدسوقي	حروب المشايخ
مصر الضرعوية سليمان الحكيم	سمير فراج	السحر في القرآن الكريم
رواد الأدب العربي في السعودية شعب عبد الفتاح	د. أحمد الصاوي	كشف المستور من قبائح وفضائل الأمور (تراث)
الثقافة الشعبية وأوهام الصنوة د. صلاح الراوي	د. أحمد الصاوي	النقود المتداولة في مصر العثمانية د. أحمد الصاوي
إنتاج الدلالة الأدبية د. صلاح فضل	د. رأفت النبراوي	النقود الإسلامية في مصر
منهج الواقعية في الإبداع الأدبي د. صلاح فضل	م أحمد ظريف المعاني	Word 2000
تأثير الثقافة الإسلامية في الفقه الحديث د. صلاح فضل	م أحمد ظريف المعاني	Excel 2000
حدود الأدب المقارن ترجمة د. عبد الحكيم حسان	م أحمد ظريف المعاني	"Visual basic 6"
نقد وشعر وقص د. عدنان الظاهر	د. غفت عبد العزيز	امن وحماية البيئة خالد القاضي / وجيه البعيني
بحثاً عن فرعون العربي د. علي فهمي خسيم	د. لطفى سليمان	الضيلم والمعلم
اعلام في الأدب العالى	د. موسى الخطيب	الإبر الصينية في العلاج والتخدير د. لطفى سليمان
الصولجان والقب د. فاروق أوهان	د. نجدي إبراهيم	الأعشاب الطبية
محمد مندور شيخ النقاد فؤاد قنديل	محمد كريم	طعامك طريقك الى صحتك
الهندسة الصوتية الإيقاعية في النص الشعري د. مراد مبروك	محمد كريم	تعليم الموسيقى والعزف على آلة الأورج
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع محمد الطيب	ترجمة أحمد عمر شاهين	الجنس والشباب الذكي
السردي في مواجهة الواقع نماذج من حتمية محمد قطب	ترجمة زينات الصباغ	تجارة الجنس
أبو رجل مسلوخة محمد مستجاب	حسن صابر	اشهر فضائح القرن العشرين
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل مدوح القديري	حسين عبد الواحد	أمريكا .. الانهيار السياسي والأخلاقى حين عبد الواحد
مقالات في الحياة والأدب مدوح القديري	حسين عبد الواحد	بنات مبريس (تساء في مملكة الشر) حين عبد الواحد
الرواية في زمن القضب مدوح القديري	سمير فراج	الاميراطورة فوزية، نور زوجات شه إيران
الرواية العربية: رسوم وقرائات نبيل سليمان	سمير فراج	الإنسان والمجهول السر من منظور التنوير والتكبر ..
حديقة المتعة (تجارب سينمائية عبر العالم) نجاح سفر	د. أحمد إبراهيم الفقيه	هاجس الكتابة
يحدث أحياناً هبة غنايت	د. أحمد إبراهيم الفقيه	تعدديات عصر جديد
شكاليات التواصل في المسرح العربي هشام يحيى الخواجة	أحمد إبراهيم الفقيه	أثر الإسلام في الأدب الإسباني ترجمة د. حامد أبو حمد، وآخر
في الأدب العمالي يوسف الشاروني		
القصة .. تطورا وتعمدا يوسف الشاروني		

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد  
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .  
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء بيتناها المركز

## المؤلف

— تخرج في هندسة القاهرة ثم تخصص في آليات ومعدات الإنشاء .  
— انتقل إلى تخطيط وتنمية الموارد البشرية في الصناعة ، ثم إلى علوم الإدارة بصفة عامة ، خبيراً استشارياً وكاتباً ومؤلفاً ومترجماً ومحاضراً ومديراً للعديد من مشروعات التطوير المؤسسي .

— ترجم مرجعين عالمين في الإدارة وألف كتاباً في إعداد التقارير في الصناعة .  
— أسهم بقدر وافر في المجالات الأدبية والثقافية ، وصدر له :

### مؤلفات ومترجمات في الإدارة :

(١) كتابة التقارير في الصناعة والأعمال . الخبراء العرب في الهندسة والإدارة .  
١٩٧٧ .

(٢) أفكار عظيمة في الإدارة (عن الإنجليزية) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع .  
١٩٩١ .

(٣) ثورة في عالم الإدارة (عن الإنجليزية) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٤ .

أعمال فكرية : خفايا المستقبل ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩ .

### أعمال أدبية :

(١) أنشودة الغرباء (شعر) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .

(٢) الجدران (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٢ .

(٣) شبان هذه الأيام (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٣ .

(٤) شخص آخر في المرأة (رواية) . مطبوعات الجديد ، ١٩٧٥ .

(٥) قبل أن يهبط الظلام (رواية) . دار الهلال ، ١٩٧٩ .

(٦) امرأة أخرى (رواية) كتاب اليوم . ١٩٧٩ .

(٧) الحب رجل (رواية) . الدار القومية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

دراسات أدبية : نماذج من الرواية العالمية ، كتاب الهلال ، ١٩٧٥ .

ترجمات أدبية : ترجمة ومراجعة ومقدمة نقدية لحوالي عشرين عملاً من

الدراما العالمية لسلسلة المسرح العالمي الكويتية .